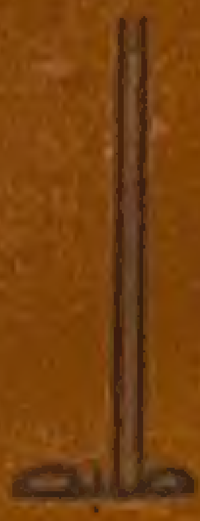








اساطير فرعونية

نقلها الى العربية
كمال الحناوى

الكتاب الماسى
قصص عربية

اساطير فرعونية

من تاريخنا القديم

نقلها إلى العربية
كمال الدين الحناوى

مقدمة

ظل الناس الى أمد قريب يظلمون الفراعنة والمصريين القدماء فيتهمونهم بعبادة الأصنام والحيوانات وما الى ذلك ، وليس أبعد عن الحقيقة من هذا الاتهام ، فقد كانت للمصريين عقيدة ثابتة وايمان وطيد ، باله واحد قوى ، يحاسبهم على كل عمل أو قول خلال حياتهم الدنيا ، وهم يتوكلون على ذلك الاله فى كل صغيرة أو كبيرة فى حياتهم أو عملهم .

وقد كشف الحجاب عن بعض معتقداتهم فيما بعد الموت ، من الدراسة العميقة المضنية ، للنصوص المنقوشة على جدر المقابر والمعابد ، وأوراق البردى ، وأهم مصدر لهذه المعلومات ، هو كتاب الموتى ، فهو يصف رحلة الروح بعد الموت ، خلال العالم السفلى ، ويصف الصعاب والعقبات التى تعترضها خلال هذه الرحلة وكيف تتغلب عليها ، وكانت نصوص هذا الكتاب تدفن مع الموتى لترشدهم الى السبيل القويم ، لتخطى تلك العقبات ، والوصول مع اله الشمس « رع » الى العدوة الأخرى حيث حقول السلام .

وقد اكتنظ كتاب الموتى بأسماء آلهة عديدة ، لاداعى أن نزعج القارىء بذكرها ، وتتحدث النصوص القديمة التى كتبت منذ ستة آلاف سنة ، عن خالق عظيم هو الأصل فى حياة كل شىء ، ولكن قصور العامة عن ادراك فكرة اله واحد ، يخلق كل هذا العالم ، جعل الكهنة يقربون الفكرة من أذهان الناس وذلك باتخاذ اله أو رب لكل شأن من شئون الحياة ، وكل اله من هؤلاء يعمل لحسابه الخاص مستقلا عن الآخرين ، وقد نتج عن ذلك أن أصبح عدد الآلهة المصريين كبيرا ؛ لدرجة لايمكن لأحد أن يلم بها ؛ حتى المصريين أنفسهم ،

ولكن الكهنة ورجـال الدين والمثقفين من المصريين كانوا يعلمون أن هذه الآلهة جميعا ليست الا رموزا تدل على قـدرة الخالق العظيم ، وما هى الا مظاهر لقوته ، التى أوجدتهم ومنحتهم الحياة .

وأشهر هذه الآلهة جميعا اله الشمس « رع » الذى يظهـر كل صباح على الأفق الشرقى ، بعد أن ينتصر على قوى الظلام ، ويبـدأ رحلته اليومية فى قاربه المسمى بقارب ملايين السنين ، وفى خلال رحلته يرعى عباده ، ويرى مايفعلون من خير أو شر ، ويمنحهم النور والحرارة منبع الحياة والقوة ، وفى المساء يمر خلف الجبل الغربى ، ثم يغوص فى ظلمات العالم السفلى ، ثم يمضى على المجرى المرعب متغلبا على جميع أعدائه ، حاملا معه أرواح الذين مثلوا أمام محكمة أوزيريس ووجدهم من الأخيار ، وتنتهى رحلته عنـد الفجر فيخرج من العـالم السفلى ليبدأ رحلته من جديد عبر السموات .

وقبل أن يعرف الناس الكتابة بزمان طويل كانت الصلوات تقام فى المعابد للآلهة . ورغم ذلك فان خاصة المصريين كانت تعتقد بوجود اله عظيم حكيم خالد ، لايستطيع انسان أن يدرك كنهه ولكنه يراقب الناس ويستمع الى صلواتهم ودعائهم ، وفيما يلى جزء من ترنيمة كان الكهنة يرتلونها كل يوم فى معبد آمون بطيبة ؟ ومعانيها تعطى صـورة واضحة عن العقيدة الصحيحة للمصريين القدماء :

الله واحد أحد ولا شريك له .

الله واحد وقد أبدع مخلوقاته وحده .

الله روح غامضة لايراها الانسان ، خفية عن كل شىء .

الله روح الأرواح ، روح مصر المقدسة .

الله هو الله منذ البداية ، هو الله قبل أن يكون شىء .

هو سيد المخلوقات ، وأب الجميع ، هو الآله الدائم ...

الله هو الموجود الخالد الذى لايفنى ، لا بداية له ولا نهاية .

الله لم تكن له بداية ، وليس له نهـاية ، وسيظل كـذلك على الدوام ...

الله خفى ، لايعرف انسان شكله ولاشبهه .

لاتعلم الآلهة مداه ولا الناس ...

الله هو الحق ، ويحيا على الحق ، انه الملك الحق .

الله هو الحياة ، ولا حياة للناس بدونه ، هو البداية ، هوالواحد الأحد ...

هذه صورة من عقيدة المصريين القدماء ، العقيدة التى يعرفهـا رجال الدين والمثقفون ، لا تلك الافـكار الساذجـة التى تتلاءم مع عقلية الجماهير ، والتى اخترعها الكهنة لتقريب الدين الى عقل الشعب وقد جمعت هذه الأساطير من مصـادر مختلفة موثوق بها وأشهـر الاساطير المصرية القديمة ، أسطورة ايزيس وأوزيريس ، أو قصـة الصراع بين الخير والشر ، وهى قصة خالدة باقية ، تتكرر فى كل دين ، وتتخلل كل عقيدة ، وان كانت قد بدأت من المصريين القدماء ، وسيجد القارىء مشابهة كثيرة بين هذه الاساطير والقصص الذى جاء فى كتب الديانات المختلفة سماوية وأرضية .

وبعد ... لعل القارىء أن يجد متعة فى قراءة هـذه الأساطير التى ابتكرتها مخيلة هذا الشعب العظيم ، ولعله أن يجد لها صـدى فى نفسه كما وجدت لها صدى فى نفسى .

كمال الدين الحناوى

احزان ازلیں

- ١ -

هناك فى جنوب الوادى ، وعلى شقة خصيبة من الأرض تحف بمجرى النهر المقدس ، كانت تقبع مدينة طيبة ؛ ولا تزال أطلالها الى اليوم ماثلة للعيون ، تنبىء عن أمجادها وعظمتها ، فقد كانت فى زمانها أروع مدن العالم .

ولكنها حين بدأت هذه القصة ، كانت لاتزال فى مدارج طفولتها ، فلم تكن معابدها الفخمة قد شيدت ، ولم تكن الآلهة معروفة لأهلها ، فلم يكن آمون معروفا لهم ، ولم يكن فى مقدورهم أن يدركوا من هو « رع » ذو الجلال .. لم تكن آلهتهم فى ذلك الحين تعدو التماثيل من خشب أو من حجر ، وكانوا يقدسون الشمس منبع الحياة ، والنهر الأزلى الخالد : النيل ...

وقد أبتنوا لآلهتهم هذه معبدا على بقعة مقدسة من الأرض يعبدونها فيه ويقدسونها ، كان ذلك المعبد حسن البناء ، متلفعا بخميلة من الأشجار ذات الظلال .. وكانت تتفجر عند أقدام درجه عين نقية الماء رقراقته ، ألف الناس عذوبتها وصفاء رشاشها المتناثر ، فاعتقدوا أن الآلهة قد باركتها جزاء مايقدمون لها من فروض التقديس والتعظيم

وفى صبيحة محرورة من صبائح الصيف ، كان أحد السقائين يجر قدميه الى تلك العين وقد تدلت على ظهره قربة من جلد الماعز ، كان شابا فتيا ، ولكن ظهره قد انحنى لكثرة ماتحامل على نفسه وهو ينوء بحمل هذه القربة من جلد الماعز تكاد تنتفض امتلاء ...

والتقى به سقاء آخر تتدلى من كتفه قربته الفارغة ، وقد أدار ظهره الى العين وكر راجعا الى البلدة ، فلما التقى بسقائها الفتى سأله:

ـ ولم العمل فى هذه الساعة ... ؟

ــ بل قل ولم العمل على الاطلاق ...؟

ــ انك محق ياصاحبى ولكن الحاجة تدفعنا الى ذلك ، ولولاها لكان كلانا مطشنا فى كوخه ، ومع ذلك فلن يلومنا أحد اذا استرحنا فان القيظ يكاد يصهر الرمال . مالك اليوم كئيب النفس ... ؟

ــ لست أحس ذلك . ولكن لابد للانسان من أن يأكل ، ولن يستطيع ذلك حتى يعمل ...

ان ورائى كثيرين لابد من اطعامهم ، وأبى الشيخ مريض ، وعلى عنهم جميعا .... !!

ــ حسنا ... اما أنا فلن أعمل قبل حلول المساء حتى يلطف الجو .

وانصرف السقاء الآخر الى كوخه حتى يحل المساء ، أماباميليس فقد تابع زميله بنظره وهو يبتعد ، وأحس بالمرارة تمض قلبه لهذا الحظ العاثر الذى يكبده كثيرا ... وعندئذ تذكر تلك الأفواه الجائعة تنتظر عودته فى الكوخ ، وأدار سقاؤنا الفتى وجهه نحو العين ، وانطلق فى طريقه لايلوى على شىء .

وخيل له حين ملأ قربته من ماء العين أنه سمع نداء باسمه ، فأدار بصره فيما حوله ولكنه لم ير أحدا ...

ــ باميليس ...

رن النداء فى أذنيه واضحا جليا فلم يعد هناك مجال للشك فى هذه المرة ، ونظر أمامه ، وأخذ يرفع القربة الممتلئة على ظهره المنحنى وقد جحظت عيناه الى الدرج المؤدى الى المعبد .

ــ باميليس ...

انطلق الصوت للمرة الثالثة فألقى السقاء المسكين ــ دون أن يحس بما فعل ــ ألقى بالقربة على الأرض ، واستحال ماتحت قدميه الى بركة صغيرة .

ــ لاتخف .. !!

سمع باميليس هذه العبارة وخيل لحواسه المبهورة أن الصوت ينبعث من التمثال القائم أمام المعبد .

ــ لاتخف ... ولكن انطلق الى البلدة ، وبشر الناس بمولد أوزوريس سيد الأرضين ثم أعلن هذه البشرى للناس فى طول البلاد وعرضها .

وتلاشى الصوت .. وفىاللحظة نفسها انطلق باميليس كالمجنون لايلوى على شىء وقد ألهاه الخوف عن قربته تلك ، المصنوعة من جلد الماعز ، ولم يتوقف حتى وصل الى كوخه المجدول من الغاب على شاطىء النهر .

وقص السقاء الفتى قصته على زوجته فظنت به خبالا ... وحسبت شدة القيظ قد أثرت على رأسه ، فاضطرب ذهنه ، ونصحته ساخرة أن يعود أدراجه الى العين ليسترد قربته فقد يعثر بها عابر سبيل فيلتقطها ، أما أبوه الشيخ ، فقد سمع طرفا من القصة وهو مستلق على فراشه فى أقصى الكوخ ، وقد أغمض عينيه الذابلتين ، ودعا اليه ولده وسأله أن يعيد القصة على مسمعيه ...

ولما انتهى باميليس من قصته قال الشيخ فى صوت مرتعش :

ــ انه لصوت السماء يابنى ... فاذهب وأعلن البشرى كما أمرت ... أما أنا ... فكم كان يسعدنى أن أعيش حتى اسمع هذه الأنباء السارة ... باركتك الآلهة يابنى ... !

وأدار الشيخ المحتضر وجهه الى الحائط ولفظ آخر أنفاسه .

وعندئذ انطلق باميليس صادعا بما أمر ... وهكذا أعلنت البشرى بمولد أوزيريس .

— ٢ —

وذات أصيل فى مطلع الصيف ، والشمس معلقة فى الأفق فوق الهضاب ، وقد سبحت فى بحر من القرمز والأرجوان والذهب ، وقف رجل ضخم البناء فارع الطول ، فى ظل شجرة الحـــور القريبة من المعبد ، كان متناسق الأعضاء ، مهيب الطلعة ، يبدو أكثر من الفنانين من البشر ، فقد كانت تلوح عليه سمات الخلود ...

وكانت تقف الى جانبه امرأة لم تشرق الشمس على أجمل منها : وجه حلو رقيق ، وبشرة خمرية مشرقة السمرة ، وشعر كستنائى غزير ينسدل حتى عقبيها فيبدو تحت أشعة الشمس الواهنة ، وكأنه أسلاك دقاق من النحاس الأحمر ...

وعندما غاص قرص الشـمس وراء الأفق الغربى ، انسـكبت على التلال الداكنة حلة من الأرجوان الصافى ، وارتسمت على صفحة النهر أطياف حمر كألسنة اللهيب ، وعندئذ تحولت المرأة الجميلة الى الرجل الخالد ، واتجها الى الشمس الغاربة فى ضراعة وخشـوع ، واستغرقا فى صلاة قصيرة « لرع » اله الشمس .

ولما انتهيا من صـلاتهما ، فرش الرجل عباءته على الصـخر ، ودعاها للجلوس ليستريحا ، وجلسا وأخرج من جيب ردائه نايا أخذ ينفخ فيه ، فتنبعث منه أنغام مقدسة ، لايمكن أن تكون من صنع الأرض ، انها أنغـام من السماء ... انهـا لترق حتى لكأنها حفيف الأجنحة بين الغصون ، وتصفو حتى كأنها نداء طيور البحـر تدعو رفاقها ، وتعنف حتى تصبح كهـدير الشلال حين ينحـدر من أعلى الجبل ، ثم ترق فتصبح كخرير الجـدول يتلوى على الحصـباء فى مجراه ... ثم ينتهى اللحن بصوت أجش غليظ يشبه صوت الجوقة فى تناسقه وانتظامه .

وأخذت السيدة الجميلة تترنم بأغنية عامرة بالحنان ، تصحبها فى الغناء نغمات النـاى ، كان غناؤها رقيقـا هادئا ، كان يعبر عن السرور والحـزن معا ، وتلمس فى نبراته الصفاء والانقبـاض على السواء ، وينتقل بك من هبوب العاصفة العاتية الى شروق الشمس الناعم ، وكان الى ذلك يعبر عن الحب اللانهائى الأصيل ...

وبينما تلك الأنغام آخذة فى التلاشى ، اذا بشيخ وقور ، شاحب الوجه ، متشح بعباءة بيضاء ، متمنطق بحزام من ذهب ، يقبل على عابرى السبيل هذين ، وقال الشيخ وقد ارتسم على وجهه المتغضن مزيج من الاحترام والخوف والعجب ...

— طلب مساؤكما ...

— ومساؤك يا أبتاه ... هل تستطيع أن تدلنا على مأوى فى هذه الناحية ؟ اننا سنواصل الرحيل ولكن يسرنا أن نستريح هنـا بعض الوقت .

وصمت الشيخ قليلا ولكنه أخذ يحدق فيهما بعينيه محـاولا أن يستشف أفكارهما ، وأن ينفذ الى دخائلهما ، ولم يلبث أن جثا على الأرض وأكب برأسـه على نعلى الرجل والمرأة يقبلهما واحدا بعـد الآخر ثم رفع رأسه قائلا :

— اننى كاهن هـذا المعبد القريب ، وقد أحطت ببعض أسرار السماء ، وقد نبئت منذ أمد طويل بأنكما قادمان ، ولكننى لم أكن أتصور يوما أن أكون أول من يحييكما على الأرض ...

وبعينين فيهما ولاء واكبار ، أخذ الرجل المقدس يشبع نظـره من الغريبين ثم سألهما :

— هل لمولاى ومولاتى أن يتنازلا ويقبلا الضـيافة فى منزلى الفقير ؟

وأجابه الرجل ...

— اننا أقبلنا عليك أولا لأنك مخلص فى خدمتك ، صادق فى ايمانك ، واننا لنتقبل كرمك بالشكر ، ولكننى أستحلفك ألا تحدث أحدا بما تعلم من أمرنا ، فان علم ذلك رهن بمشيئة السماء ...

وقال الراهب الشيخ وهو يجثو حتى لتكاد جبهته تمس التراب

— ان عبدك يسمع فيطيع ...

— قدنا اذن الى دارك ... تعالى يا ايزيس ولنصحب الشيخ فان الوقت قد تأخر ...

وقالت ايزيس وهى تتأبط ذراع الرجل :

— لتصحبك بركات رع أينما ذهبت يا أبتاه ...

ثم سارا قدما ... وهكذا ظهر أوزيريس وزوجته ايزيس فى أرض مصر ...

— ٣ —

أخذ أوزيريس وايزيس يترددان كل يوم على البلدة الرابضة فى ظلال المعبد العتيق ، ولم تكن القصور الفخمة التى نشاهد أطلالها ، ولا المعابد الضخمة التى نرى بقاياها ، ولا طرق الكباش التى اشتهرت بها طيبة ، لم يكن ذلك كله قد عرف بعد ، فقد كان لايزال فى ضمير الغيب ، أما قصر الملك ودور النبلاء فقد بنيت من الحجر ، وبقية الدور أقيمت على دعائم من خشب ، أو ابتنيت من الطوب واللبن .

وكان الناس يتركون أعمالهم عندما يمر بهم الغريبان وينظرون اليهما وهم مأخوذون بروعتهما ، فلم يسبق لهم أن رأوا رجلا فى هذا الجلال والنبل ، ولم يروا من قبل امرأة بهذه الحلاوة والرشاقة محببة الى جميع القلوب ، وحتى ملكهم وملكتهم كانا لايذكران اذا ماقورنا بهذين المخلوقين من أشباه الآلهة .. وكأنهم أحسوا بغريزتهم أن الغريبين ليسا من أبناء هذه الأرض ، فقابلوهما بمظاهر الاجلال والاحترام ...

ولعلك أدركت أسئلة لاحصر لها كانت تدور فى منزل الكاهن عن الضيفين اللذين حلا به ، ولكن الكاهن العظيم احتفظ بالسر لنفسه ، وضن به حتى على أهله ، فلم يعلموا أكثر مما علم الناس وكانوا يجيبون كل سائل قائلين « انهما عابرا سبيل ، ولقد لقيهما أنى الكاهن فى ظل أشجار المعبد ، فسألاه أن يضيفهما فترة ، وهذا كل مانعلمه ... أما بأى طريقة جاءا ولم أقبلا .. ؟ فلم يكن الناس يلقون عن هذا كله جوابا ، وكان الغموض الذى أحاط بمقدمهما يزيدهما رهبة ويزيد الناس خشية لهما ، وقد تأصلت هذه الخشية فى نفوس الناس على مر الأيام وتحولت الى تقديس مشوب بالخوف .

وأخذ أوزيريس وايزيس يختلطان بالناس ، ينصحان هذا ،

ويساعدان ذلك ، ويشجعان آخر ، وحيثما كانت الحاجة ماسة اليهما وجدتهما ماثلين ، فلم تكن هناك يد تلطف من حرارة الحمى أرق من يد ايزيس ... ولم يكن أحب من صوتها الحنون الى الطفل المريض العانى ، وكان مما يلفت النظر ويسترعى الانتباه أن المرض كان يزايل كل من تلمسه .

وذات يوم سقطت كتلة من الخشب على طفل صغير ، وبينما أمه حائرة لاتجد سبيلا لتخفيف الألم عن طفلها الصغير ، اذا بالسيدة الغامضة الى جوارها ... وتناولت ايزيس الطفل بين ذراعيها فى رقة ، وكأنما مسه السحر ، فانفرجت أسارير الوجه المتقبض ، وسكنت الأوصال التى كانت تتلوى ، ثم مرت بأناملها على جبهته ، ثم مسحت بها على صدره وقلبه ، وياللعجب ... ان عينيه تتفتحان فى بطء ... وان شفتيه لتفتران عن ابتسامة حلوة ... وأخذ الطفل ينقل بصره فى دهشة بين أمه وبين ايزيس ، ثم صاح فجأة « أماه ... أماه ... اننى ذاهب مع السيدة الجميلة ... انها تناديني ياأماه ... اننى ذاهب الى مكان جايل ، ولن أحس ألما بعد الآن ... » .

ومات الطفل فى المساء ، ولكنه لم يتألم مرة أخرى ... أما أمه الثكلى فقد أدركت ... ثم صمتت ... !!

وكان أوزيريس بدوره مشغولا على الدوام ، كان عمله فى الحقول أكثر منه بين دور البلدة ، فقد علم الناس صنع المحاريث ، وابتكر لهم طريقة يرفعون بها الماء من النهر المنخفض الى الأرض المرتفعة العطشى ، بدلا من حملها على ظهورهم كما كانوا يفعلون ، ثم علمهم بعد ذلك كيف يسهلون العمل على أنفسهم ، وكيف يفيدون من الأرض التى فيها يكدحون .

وفى الأمسيات الرطبة كان يجلس ومن حوله زحام من الريفيين صغارا وكبارا ، وكلهم فاغر فاه من الدهشة ، بينما أوزيريس يوقع على نايه بعض ألحانه العلوية الخالدة ، وقد علم بعضهم التوقيع على

الناى ، وكون منهم جوقة موسيقية ، كثيرا ماعزفت ألحانها فى ضوء القمر المنسكب ، وكانت رعيته البسيطة الساذجة لاتتركه يعود الى داره حتى يرتل ترنيمة حبيبة الى النفوس ، فهى تتحدث عن الأرض والسماء ... والحياة والموت ... وتتناول كثيرا من الأشياء وراء مداركهم ومعرفتهم .

ولم يمض وقت طويل حتى سمع الملك بأمر الغريبين ، وبما يدور حولهما من أقاويل تشبه المعجزات ، فأرسل فى طلب أوزيريس ، فلما مثل بين يديه دار بينهما حديث بدأه الملك قائلا :

— من تكون أيها الرجل ؟ ومن أين أقبلت ؟

— اننى رجل أسفار وأخو رحلات ، وقد سمعت كثيرا عن أرض مصر وعن أهلها ، فرغبت فى رؤيتها ، وقد جئت من أرض آلو وسأظل هنا فترة قصيرة ثم أرتحل ثانية الى هناك .

— وأين تقع هذه الأرض التى ذكرت ؟ لقد سارت جيوشى شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا ، ولكننى لم أسمع بهذا الاسم من قبل .. ؟

— انها تقع الى الغرب البعيد ، وراء أبعد الحدود التى يصل اليها الانسان .

— وكيف جئت اذن .. ؟ ما دمت قد استطعت المجىء الى هنا ، فاننى أستطيع الذهاب الى هناك ؟ فصف لى الطريق الى هذه الأرض الجديدة فاننى أحب أن أراها ...

— هذا لن تستطيعه ولن يستطيعه انسان ؟ فانها بعيدة جدا ..

— انك لن تعود الى بلدك اذن أبدا ! ... ؟

— مادمت حيا ... سأواصل الرحيل ولكننى لا أتوقع أن أصل اليها مابقيت لى الحياة ...

— دعنا من هذا اذن ... ؟ لقد سمعت الكثير عن قدرتك

وحسن تدبيرك ، وأود أن تظل فى قصرى بين رجال البلاط والسحرة حتى يأخذوا عنك الحكمة ...

ـ لك ذلك يامولاى ولكننى لا أستطيع التنكر لواجبى حيال الفقراء من الناس ، وأحتفظ لنفسى بحق مساعدتهم ، شأنى معهم قبل اليوم ..

وهكذا كان ...

وأخذ أوزيريس يمضى كل يوم الى البلاط فيجلس اليه رجال الحكمة يأخذون عنه كل يوم جديدا ؟ وطالما توسلوا اليه أن يبقى معهم فى القصر ، فلم يعر توسلاتهم التفاتا ، وقال لهم انه يفضل البقاء فى دار الكاهن آنى الذى سبق الناس جميعا الى صداقته .

وكثيرا ماكان أوزيريس يتحدث الى جلسائه عن المعبد الذى فيه يتعبدون ، قائلا لهم ان التمثال الذى يجثون أمامه عاجز لايستطيع أن يسدى اليهم معونة ما ؛ ولكن فوقهم موجودا أعلى ؛ يدفع عنهم الأذى ويرعاهم ، ويستجيب لدعائهم ، وان الشمس التى ينبعث منها الضوء والحرارة انما هى آية من آيات ذلك الموجود ، وان نهر النيل الذى يروى الأرض ويغذى الزرع ، انما أرسله عليهم من السماء ، فاذا عاشوا عيشة النبل والايثار ففى مقدورهم أن يلحقوا بمملكة الاله العظيم حيث يعيشون فى رفاهية ومجد ، وبهذا الأسلوب بث أوزيريس فى نفوسهم فكرة تقدير الموجود الأعلى ، وقد سهل عليه سبل الاقناع ؛ أن أعماله كانت خارقة تبلغ حد الاعجاز ، حتى ان سامعيه كادوا أن يحسبوه هو نفسه الاله العظيم الذى يحدثهم عنه ...

- ٤ -

وفى يوم من الأيام التى يجلس فيها الملك للحكم بين الناس ، دخل أوزيريس البهو فوجد سحابة من انصمت تخيم عليه ، ورأى الضابط الشاب حوتب يقف وحده على مبعدة من الناس ، وقد رانت على وجهه سحابة من الوجوم ؛ كان ذلك المحارب الشاب ممن أسروا قلب أوزيريس فهو يتحمل التبعات الجسام دونخوف ويسلك مسلك الفرسان ، ويعالج الأمور فى صراحة مرحة .

وعبر أوزيريس البهو الى حيث يقف المحارب الشاب وسأله :

ـ ماذا حدث ياحوتب ؟ وفيم وقوفك واجما هكذا لاتمرح مع الرفاق ؟

ـ اننى أجنبهم المتاعب بابتعادى عنهم ، ألا تعلم أن الملك سيصب غضبه عليك اذا رآك تتحدث الى الآن ..

ولاحظ أوزيريس أن رجال البلاط ينظرون اليهما ويتهامسون فسأل حوتب :

ـ وماذنبك ... ؟

ـ ذنبى هو اننى لم أتملق ذوى المناصب ، ولم أمكت على الخطأ يقترف أمامى ، وبهذه الطريقة صنعت لنفسى أعداء كثيرين ، فاتهمنى هؤلاء الأعداء بالتآمر على حياة الملك ، وهأنذا هنا اليوم لأحاكم ...

ـ آه ... اذن فهناك من تغضبهم شجاعتك ، ويؤذيهم صدقك ... ؟!

نطق أوزيريس بالعبارة الأخيرة فى عجب مقرون بالاستياء ، ثم

تحرك فى خطوات بطيئة متثاقلة ليتحــدث الى كاهن المعبد ، بينما رأسه منكس وذهنه غارق فى تفكير عميق ...

ودخل الملك البهو فى تلك اللحظة ، فانصرف انتباه رجال البلاط الى مايقول ، ولكنه لم يقم كعادته بعد أن انتهى حديثه ، بل جلس على كرسى العرش ، ثم سأل بعد برهة فى عظمة وتعال :

ــ هل عبدنا حوتب هنا ... ؟

فخطا الشاب الى الأمام وانحنى فى اجلال ثم قال :

ــ نعم هنا أيها الملك ...

ــ لقد تناهى الينا مايشككك فى ولائك .. ؟ فأنت متهم بالتآمر على عرشنا . ؟ فهل لديك ماتدفع به التهمة ... ؟

ــ أتوســل الى مولاى أن يدعنى اســتمع الى الادعاءات بالتفصيل .

وقطب الملك جبينه ، فانه لم يألف أن يتشكك أحد فيما يقول ، ولكنه كظم غيظه ونادى قائد حرسه وأمره :

ــ اقرأ ماورد فى الادعاءات ...

ــ عبدك حوتب ، النقيب فى جيش جلالتك ، متهم بالتآمر على سلامة الملك والبيت المالك ؛ بل ويحرض الآخرين على مســاعدته فى هــذا العمل الشرير ، وقد حاول بث روح التمرد فى نفوس قوات جلالة الملك حين كان يؤدى عمله كنقيب فى جيش الجنــوب ، وهو يرمى من وراء ذلك الى تسخيرهم لتنفيذ مآربه الشريرة ..

وبعد أن انتهى قائد الحرس من التلاوة وجه الملك الكلام الى حوتب قائلا :

ــ مارأيك فى هذه الاتهامات .. ؟ وماجوابك عليها ؟؟؟

ــ ومن هم الذين اتهمونى ... ؟

وقطب الملك جبينه مرة أخرى وقال فى غضب :

ــ ان هذا لايعنيك فى شىء ، وقد سمعت الاتهامات فهل لديك ماتدفع به التهمة ؟؟

لاشىء يامولاى الا أنه كذب صراح ، اختلقه على أعدائى ، ان جلالتكم تعلمون اخلاصى فى أداء واجبــاتى ، واننى أحتمى برأيكم واثقا من شرفكم .

وبدأ على الملك لمدة قصيرة أنه محرج ، ولكن الغضب عاوده مرة أخرى فقال :

ــ الاعدام جزاء خطيئتك ... اذهبوا به ...

وحدثت حركة فى البهو فالتف الحراس بحوتب ، يريدون تنفيذ أمر الملك ، وأدار المحارب الشاب نظرة سريعة حول البهو ، فقد كان فى نضارة العمر ، والحياة لاتزال جميلة محببة ، ولكنه لم يجد على وجه من الوجوه المحيطة به نظرة تشجيع واحدة ، وغلب عليه اليأس فاستدار فى صمت ومرارة الى الرجال الموكلين به ، وقد ارتسمت على شفتيه بســمة ذاهلة ، وأسلم اليهم قيــاده ، ليسيروا به الى مصيره المحتوم ..

ــ وهل يعدم الملك رجلا لم يسمع دفاعه ... ؟؟

ألقى أوزيريس بذلك السؤال ، وكان قد خطا نحو العرش ، دون أن يلحظه أحد ، واستأنف سؤاله :

ــ وهل من دواعى شرفه أو نبله ، أن يبعث بخــادم مخلص ، ليموت على هذا النحو .. ؟

واكتسحت البهو عاصفة من الدهشة كما تهب الريح فجــأة ، فلم يحدث من قبل أن شــخصا ناقش الملك فى رأيه بصراحة ، حتى ان الملك نفسه قد أخذ بهذه المفاجأة ، فلم يستطع الكلام ، وبعد فترة طويلة أفاق من ذهوله ودهشته ، وعاودته القدرة على الكلام فقال :

ـ انك تجترىء كثيرا على العطف الذى أوليناك ، ألست غريبا فى ديارنا .. ؟ ان اندفاعك على هذا النحو سيؤدى بك الى نفس المصير الذى صار اليه من تدافع عنه . ؟ فقف جانبا ولا تتدخل فيما لا يعنيك أكثر من ذلك ؟ والا حدث لك ما يسوءك .

ـ أنا لا أطلب منك أكثر من اتباع العدالة مع الرجل ، فهل أنت فاعل ذلك .. ؟

ـ أتجرؤ على مخاطبتنا بهذه اللهجة ... ؟ خذوا هذا المأفون بعيدا والا قتلته حيث يقف .. !!

صرخ الملك بهذه العبارة فى غضب ، واهتز الرمح الطويل فى يده ، ولكن أوزيريس لم يتحرك من مكانه وقال فى هدوء :

ـ لن أبرح مكانى هذا حتى تأخذ العدالة مجراها مع رجلك حوتب ...

واندفع الملك فى غضب الى الأمام والرمح مشرعة فى يمينه ، ليطعن بها أوزيريس ، ولكن أوزيريس صاح فيه :

ـ مكانك ...

انطلقت الصيحة مجلجلة كالرعد تتجاوب التلال صداه ، وكأنما شل الملك عندما بلغت أذنيه هذه الصيحة ، فجمد فى مكانه ، وهوى الرمح من يمينه على الأرض الجرانيتية ، وحملق رجال البلاط فى فزع وخوف شديدين ، وكأنهم يتساءلون ماذا سيحدث بعد ذلك ..؟

وكم كان أوزيريس شبيها بالآلهة وهو يشرف عليهم جميعا كرجل يشرف على جمع من الأطفال وذراعاه ممدودتان ، وعيناه تلتمعان كاللهب البراق الخاطف ... !!

وفى بطء استرد الملك شعوره وارتمى فى مقعده وهو يرتعد من الخوف ...

وقال أوزيريس فى صوت رهيب :

ـ لو تقدمت خطوة أخرى لكنت الآن فى طريقك الى الظلال

السفلى ... اننى أملك القدرة على افنائك ؟ وافناء من يحيطون بك ؟ فأطلق صراح رجلك حوتب الذى اتهم بالباطل ، وأنزل العقاب بمن أرادوا القضاء عليه ، ولاتثر غضبى مرة أخرى ، ولكن تذكر جيدا ... واخش كثيرا ...

وقبل أن تعاود الجمع المذهول قدرته على الحديث والحركة ، كان الاله قد ذهب ..

- ٥ -

ومرض الملك على أثر ماحدث ، وانتقل الى الظـلال السفلى ، ولحق بآبائه وأسلافه ، ولم يترك من يخلفه على عرش البلاد ، وكان على النبلاء والحكماء أن يتخيروا واحدا منهم ليحكم البلاد ، بدلا من الملك الراحل ، فأجمعوا أمرهم على تولية أوزيريس ، ولكن أنى له أن يتقبل التاج وماتلك برسالته ؟ ومر على مصر دهر طويل وهى بلا ملك ، حتى أصبح أهلها كالأغنام الضالة لاتجـد من يرعاها ، وعندئذ نزل أوزيريس على رغبتهم ، وقبل الولاية عليهم .

وانقضت أعوام وتلتهـا أعوام ؛ وأوزيريس وزوجته ايزيس يحكمان البلاد فى أمن وسلام ، وقد استمر أوزيريس يعلم النـاس فنون الحياة ، شأنه معهم منذ حل بأرضهم لأول مرة ، وامتد حكمه خارج حدود مصر ، فأخضع الناس لا بقوة السلاح ولكن بالكلمات الطيبة ، وبتلقينهم فنون الزراعة ومطـالب الحياة السـلمية التى لم يتعلموها من قبل ، وغالبا ماكان تغيبه فى أسـفاره يستمر شـهورا طوالا ، فكانت ايزيس تحل محله فى حكم البلاد .

وذات صباح طرق باب القصر فى طيبـة رجل غريب المنظـر ، تصحبه شرذمة من الرجال المسلحين ، وكان الرجل قويا فارع الطول ، ولكن وجهه كان شديد القبح ، بل كان أقبح وجه شـاهده حارس الباب طول حياته ، كان مسخا هائل الخلقة ، وكان ذراعاه الطويلان يتأرجحان فى تراخ على جانبيه كذراعى الغوريلا ؛ ورأسـه الضخم قد استقر على عنق قصيرة مكتنزة كعنق الثور ، وكان حاجباه كثيفين أسودين كزوج من الخنافس ، وأنفه ضخما مفرطحا ، ومما زاد فى بشاعة وجهه ، شفته المشقوقة التى تكشف عن أنيابه القذرة ، لقد كان وجهه وخلقته يوحيان بالشر الكامن فى داخله ، حتى ان حارس

البوابة الشجاع قد داخله الخوف فالتصق بالبوابة وسأله :

ـ من أنت .. ؟ وماذا تريد من هنا .. ؟

ـ هل هذا هو قصر أوزيريس .. ؟

ـ انه هو ... فماذا تريد منه .. ؟

ـ اذهب فأخبره أن أخاه ست واقف بالبـاب ، وأنه يهـديه أطيب التحيات .

ـ أنت ... ؟ أخوه ... ؟

نطق الحارس بتلك العبارة فى عجب وأطلق ضحكة مدوية ... مستحيل أن يكون ذلك المسخ أخا لمليكهم الشـبيه بالآلهة ... ؟؟ واستشاط المارد غضبا وزمجر :

ـ نعم أخوه أيها الغبى ... أسرع برسالتى والا حطمت هذه الأبواب على رأسك الفارغ ، ثم التقطتك على سن رمحى هذا ...

وكأنما هم ست بتنفيذ وعيده ، فمد يده الضخمة التى يكسوها شعر كثيف أسود ، وأمسك بقضبان البوابة وهزها هزا عنيفا كأنما يريد اقتلاعها من موضعها ، وعندئذ تراءى للحارس أنه من المستحسن أن يحترمه فقال له :

ـ سأرسل رجلا برسالتك ...

واستدار الى واحد من رفاقه وأمره بأن يحمل هذا النبأ الى القصر ، وكم دهش الحارس حينما عاد الرجل يحمل الاذن للغريب وزملائه أن يمثلوا بين يدى الملك ...

ووقف أوزيريس فى أعلى الدرج المؤدى الى المدخل ينتظـر أخاه ، وقد رحب بقدومه الى المدينة ورجاه أن يقيم معه فى القصر ، فقد كان جناح جديد على وشك أن يتم ، ولكن أكثر من واحد من الواقفين حولهما لاحظ أن تحيـة أوزيريس لأخيه كانت تفتقر الى

كثير من حرارتها المألوفة ؟ ولاحظوا أيضا تلك البسمات الخبيثة التى ارتسمت على وجه ست .

ومنذ تلك اللحظة ذهب الأمن والسعادة اللذان صبغا حكم أوزيريس ، وشاعت فى المدينة وفى الحقول على السواء روح من البؤس والشقاء ، لايدرى أحد كيف جاءت ، وأسلم الناس أنفسهم للعراك والشجار دون ماسبب ظاهر ، وكانوا جميعا يتمنون لو عادت تلك الأيام الطيبة التى سبقت مجىء ست ورفاقه الى طيبة الوادعة .

وكان أوزيريس يعلم أخلاق أخيه حق العلم ، فهو لايثق فيه حتى يقاسمه أعباء الحكم ، ولذلك لم يساهم ست بنصيب فى حكم مصر ، وانما كان همه مقصورا على الصخب والعربدة مع رفاقه ، فى الجناح الخاص بهم ، أو الخروج للصيد فى رحلة قد تستغرق بضعة شهور ، يعيشها أهل طيبة فى أمن وسرور ، ومن الانصاف لأهل طيبة أن نقول ان معظمهم كان يعتقد فى قرارة نفسه أن ست الشرير يأتمر بأمر بأخيه ؟ وأن تظاهره بالمودة ليس الا قناعا يخفى وراءه نواياه الأثيمة ...

وكانت ايزيس خلال رحلات أوزيريس وأسفاره تحرص على منع ست من ارتكاب أعماله الشريرة ، فكانت ترصد له خادما مخلصا يراقبه ، ويخبرها بكل تصرفاته وأعماله .

وهكذا مرت السنون وايزيس وأوزيريس يجاهدان لتحسين حال شعبهما ، ولكن ست الشرير كان واقفا لهما بالمرصاد ، ينتظر فرصة تواتيه ليسيطر على هذه البلاد ، ويخضعها لسلطانه البغيض ، وكان حقده على أخيه الطيب وأخته الجميلة يشتد ويأكل قلبه أكلا ...

- ٦ -

انقضت بضعة أيام وست يلازم غرفته الخاصة لايبرحها بحجة الانفراد بنفسه ، ولم يتنازل عن حجته هذه حتى مع أخلص أصدقائه وأقرب المقربين اليه ، أما رجاله هؤلاء فكانوا ينفقون الوقت فى حياة شريرة ، ويثيرون القلاقل والاضطرابات ، حتى اضطر قائد الحرس أن يقبض على اثنى عشر منهم وأن يودعهم السجن ، ولكن أعمالهم الشريرة لم تنقطع رغم ذلك ، بل ثابروا عليها سرا .

وانطوى ست على نفسه لايبوح لانسان مهما كان بما يدور بخلده ؟ وامتنع عن الطعام لايمسه والشراب لا يقربه ؟ وقد تعلم الخدم أن يجتنبوا غضبه الشديد ، وذات يوم انفلت المارد من فراشه فجأة وهو يقول « أستطيع أن أفعلها ... وسأفعلها » وعبر الحجرة فى قفزتين الى صندوق خشبى ثقيل ، وأخرج منه ثوبا من النسيج الموشى ، يختلف تمام الاختلاف عما ألفه المصريون ، فقد كان أنعم ملمسا ، وكان يشع فى نور الشمس مزيجا من الألوان أشبه بقوس قزح ، وحمل المارد الثوب بين يديه وانطلق باحثا عن أخيه الطيب أوزيريس .

وكانت الفرصة مواتية ... فقد كان أوزيريس وحده ، فسأل أخاه باشفاق :

ـ كيف حالك اليوم ياست .. ؟ أرجو أن يكون المرض قد زايلك ..

ـ لقد زايلنى تماما ، وانى لأحمد لك هذه اللهفة الأخوية ، ودليلا على اخلاصى وامتنانى سأقدم لك هدية متواضعة ؟ ما رأيك فى هذا النسيج .. ؟

نطق ست بتلك العبارات فى لهجة رقيقة مهذبة ، وكأن فى ثيابه رجلا

آخر ، وقدم قطعة النسيج الى الملك الذى تحسسها معجبا وقال :

ـ انه لنسيج رائع حقا ... ولا مثيل له فى هذه البلاد

ـ اذن فهو يصلح رداء للملك ولو تقبله أخى فسأصنع له عباءة منه ، تليق بسمته الملوكية ...

ـ أشكر لك كرمك ياأخى ... ولن أكلفك عناء بعد ذلك فاتركه لصانعى العباءات فى القصر .

ـ ان ذلك سيفقده نصف جماله يامولاى ، فدعنى آخذ المقاييس الضرورية ، ويسعدنى أن أوصى بصنعه من أجلك .

ـ لك ماتريد يا أخى اذا كانت هذه رغبتك ...

ولم يخامر أوزيريس أدنى شك فى نوايا أخيه الشرير ، فقام واقفا وأخذ ست يقيس طوله على النسيج من قمة رأسه الى أسفل قدمه ، فعلق أوزيريس على ذلك ضاحكا :

ـ ولكن العباءة لن تغطى رأسى أيضا ... أليس كذلك ...؟؟

ـ طبعا ... طبعا ... ثق من ذلك .

ولقد فاه المسخ بهذه العبارة فى تأكيد مدع ، وهو مستمر فى قياس بقية الأطوال بالطريقة نفسها ، ثم أعلن فراغه من مهمته بعد لحظات :

ـ سيتم صنعها فى أقرب وقت ، وسأمضى بها الى صانعى الحاذق فى الحال ..

وانطلق ست الى رفاقه فى الجناح الخاص بهم ، ودعاهم اليه فى عجلة الملهوف ، وبعد ساعة من الزمان كانوا يجدون فى الرحيل صوب الجنوب ، فوصلوا مع المساء الى مستنقع كبير يقوم على حافته كوخ صغير .

وأوقف ست رفاقه وانطلق وحده الى الكوخ المنعزل ، وتحت

ابطه ذلك النسيج الزاهى ، ولقد ظل فى الكوخ طويلا حتى كاد الرفاق يضجرون ، ولو كان هناك أحد على مقربة من الكوخ اذن لعجب للحديث الذى يدور فيه ، فالتغليف بالذهب ، والحفر فى الخشب ، والترصيع بالجواهر ، كل ذلك لايمت بصلة الى صنع العباءات ، ولكنها كانت على أى حال مدار الحديث داخل الكوخ ، ومما يدعو للعجب أن ست حينما خرج من الكوخ كان النسيج لايزال تحت ابطه ... !!!

واستأنفت الجماعة رحيلها ، وظل الجميع راكبين معظم الليل ، حتى وصلوا بعد يومين الى كوخ آخر منعزل ، حيث ترك ست النسيج ومعه التعليمات الكافية لتفصيله ، ثم استأنفت الجماعة الرحيل للمرة الثالثة ، واستمر السفر سبعة عشر يوما ، وصلت الجماعة بعدها الى عاصمة اثيوبيا .

وانطلق ست لتوه الى القصر الملكى وطلب الاذن بالدخول ، وسرعان ماسمح له بذلك ، وتوجه فى الحال الى آسو ، ملكة اثيوبيا السوداء ، ودار بينهما الحديث التالى :

ـ حسنا ... هل وفقت فى مهمتك .. ؟

ـ لم أنته بعد ... انهم دائما على حذر ، وأخشى أن تكون ايزيس فى شك من الأمر ، وقد تكون على علم ببعض خططى وتدابيرى .

ـ لم تنته بعد ...!؟ دائما نفس القصة تأتينى بها ، أظنك كنت واثقا من النصر فى المرة السابقة !

ـ عزيزتى آسو ، ان أحدا لايستطيع أن يفعل أكثر مما فعلت أنا ، ولكن الخطوات الأولى تعتمد على الدهاء والحيلة أكثر من القوة والبطش ...

ـ حسنا .... !

— ان لدى خطة ، ومن أجل ذلك جئت الى هنا ، ونجاحها مؤكد ان استطعت أن أحول بين أوزيريس وزوجته اليقظة ، ان رجالك على استعداد لمعونتى ... أليس كذلك ..؟؟

— أنا مازلت عند كلمتى ...

— اذن سنرحل غدا ، وفى هذه المرة سترين اننى انتصرت ...

وفى صبيحة اليوم التالى بدأت رحلة العودة ، وكانت قوة كبيرة من الجند تصحب ست ورفاقه الاثنين والسبعين ، وفى اليوم السابع أسرع المارد ومعه ثلة من الجنود ، على أن يلحق به الباقون بأقصى سرعتهم .

وظلوا يصلون الليل بالنهار مجدين فى الرحيل ، لايستريحون الا ساعات قلائل عند الظهيرة وساعات قلائل عند منتصف الليل ، وعندما وصلوا الى الكوخ الذى تركوا به النسيج وقف ست ونادى اليه الرجل :

— هل انتهيت من مهمتك ....؟

— كل شىء على مايرام ... هل لسيدى أن يرى العباءة ... ؟؟

— لا ... اننى أعرف فيك الاتقان ، فهاتها ودعنى أذهب .

ومرة أخرى جدوا فى الرحيل ، وقطع موكب رع رحلته السماوية مرتين ، حتى وصلوا الى الكوخ الثانى على المستنقع ، وكما حدث أول مرة دخل ست الكوخ بمفرده ، وأغلق الكوخ عليه وعلى الصانع ، وخرج بعد برهة ودعا اليه رفاقه قائلا :

— سنتم رحلتنا بطريق النهر .... فاحملوا هذا وضعوه فى القارب الراسى فى مدخل المستنقع .

وكان الشىء الذى أشار اليه ملفوفا بغطاء من البردى قد صنع بمهارة فائقة ؟ وكان يبدو كصندوق طويل ؟ كان كالتابوت كما قال

أحد الرجال لرفيقه ، ولكن سيدهم لم يوضح الأمر ، وكانوا يعلمون جيدا انه لن يوضحه لهم فآثروا الصمت .

ودون أن ينطقوا بكلمة حملوه الى القارب ، ودفعوا به الى القناة الضيقة التى تؤدى الى مجرى النهر ، واندفع القارب بلطف مع التيار ....

وفى الليلة التى وصل فيها القارب الى طيبة ؛ تم دفع الى درج القصر المؤدى الى جناح ست ، ونقل «الشىء» الغامض فى هدوء الى الداخل ...

وفى صباح اليوم التالى انتظر ست مقدم أخيه أوزيريس حاملا معه العباءة التى وعده بها ؛ وحيا الاخوان بعضهما بعضا ، وقدم ست العباءة لأخيه قائلا :

— هل يسمح مولاى بتجربتها ... ؟

— بالتأكيد أيها الأخ ... دعنى أجربها الآن ..

وكانت العباءة تلائمه كل الملاءمة ، وكانت تتدلى على كتفيه فى ضوء الشمس ، فتضفى على سمته الملوكية جلالا فوق جلال ، فنظر اليها معجبا وقال :

— انها لهدية ملكية حقا ، وانى لأشكرك عليها ، ولا أدرى كيف أرد لك الجميل ... ؟

— يكفينى أن تشرف جناحى هذ المساء مرتديا هذه العباءة ، وأن تشاركنا حفاوتنا بك .. ان مائدتى نادرا ماتحظى بتشريفك ، وان هذه الزيارة لتعد أحسن جزاء لى على ماكلفتنى هذه العباءة من جهد بسيط ...

وكان أوزيريس لا يرتاح الى مآدب أخيه ، لأنه يعلم أن رفاقه يسرفون فى الشراب والضجة ، وكان يكره ذلك وينفر منه نفورا شديدا ، وعلى أى حال فانه لم يرفض فى هذه المرة ، «فما ذنب أخيه

وقد ركبت فيه هذه الغرائز التى تقوده فى طريق العار .. ؟ «لقد كان أوزيريس يفكر بكرم ..

ولما انصرف ست بحث أوزيريس عن ايزيس وأراها الهدية الجميلة التى تلقاها ؟ وأخبرها أيضا بوعده لأخيه ؟ أن يحضر مأدبته هذا المساء ، فنظرت اليه ايزيس فى جزع وقالت :

ـ ولكنك قلت انك لن تذهب الى هناك ثانية .. ؟

ـ بعد هذا العمل الخير كيف أضن بهذا العطف الصغير .. ؟

ـ انها خديعة ست ... وان وراءها لشرا لست تدركه ..

ـ ألست تظلمينه يا ايزيس .. انه لم ينل من العطف مانلناه ..

ـ اننى أرثى له ولكننى لا أظلمه .. ان جسده المختل التكوين صورة لعقله المختل ، وانه ليضمر لك الشر ، فأتوسل اليك ألا تذهب اليه هذا المساء ...

نطقت ايزيس بالعبارة الأخيرة وعيناها شرقتان بالدموع ، وقد كان أوزيريس وايزيس الهين حقا ، الا انهما عاشا طويلا بين الناس ، وتشربا بأفكارهم ، بأحزانهم وأفراحهم ، وآمالهم ومخاوفهم حتى أصبحا أنصاف بشر ، يتأثران وينفعلان كالناس سواء بسواء .

وفى ذلك اليوم ألح على ايزيس قلبها البشرى بصوت مرتفع، وفى حزن مرير ، أن تحذر زوجها مادامت تتعلق به وتقف عليه عواطفها ، وقال أوزيريس وهو يعانقها بشغف « ان ست لن يستطيع أن يلحق به شرا مادام فى قصره ، ووعدها بالعودة قبل أن ينتصف الليل لكى يطمئن قلبها الجازع ..

وكان قلب ايزيس يلح عليها طوال تلك الليلة ، وكانت الأشباح الغريبة تراقص وتتمايل أمام عينيها ، وعلى حين فجأة شاعت فى الجو حمرة غريبة ، فذهبت الى مخدعها واستلقت على فراشها ، ولكن

النوم استأبى عليها ، ففى الناحية الأخرى من القصر ، كانت تستطيع أن ترى الأضواء الزاهية فى صالة الاحتفالات ، وأن تسمع الضحكات الوحشية والضجة العالية .

وفى خلال ذلك كانت المأدبة قائمة ، كانت تليق بالملوك حقا وكان أوزيريس يتصدر المائدة ، ويواجهه أخوه فى الطرف الآخر ، وقدم اليهم طبق بعد طبق من اللحوم النادرة والأطعمة المنتقاة ، وكانت أكواب النبيذ وكيزان الجعة لاتفرغ أبدا ، يسهر عليها سقاة متيقظون ، وبعد انتهاء الطعام ، هب ست واقفا وكان يبدو أن الشراب قد فعل فيه فعله وصاح :

ـ فلتشرب معى أيها الملك ، وأنتم أيها الرفاق ، اشربوا نخب صاحب الجلالة أوزيريس العظيم ؟ ملك مصر الخالدة ..

وزحمت الجو صيحة جذل وسرور ، وشرب الجميع النخب فقال ست ثانية :

ـ اننى سمعت كثيرا بمهارة الصناع المصريين ، ولكننى ياأخى خلال رحلتى الأخيرة ، وقع بصرى فى احدى البلاد على صندوق غريب الصنع ، أستطيع وأنا واثق مما أقول أن أقرر ان لا نظير له فى أى مكان ، فلنلق نظرة على الصندوق يامولاى .

وعندئذ أمر ست خدمه أن يرفعوا الغطاء عن الصندوق الغامض الذى جلبه من الجنوب وكان ملقى فى نهاية البهو . وأن يحضروه أمام المدعوين فى النور ، وعندما رفع عنه غطاؤه المصنوع من البردى، ندت عن الجميع صيحة دهشة وسرور ، فقد كان مصنوعا من المعدن على نحو غريب ، وكانت أقفاله على شكل أزهار اللوتس ، وقد نقش على غطائه تاج الوجهين بالأحجار الكريمة .

وأعجب الجميع بالصندوق الجميل ، وقال أوزيريس انه لايعرف صانعا فى مصر يستطيع أن يبدع مثله ، وازداد الهرج والمرج عندما

أعلن ست ، وقد أثر فيه فرط الشراب أنه سيمنح الصندوق هبة ، للشخص الذى يلائم الصندوق جسده تماما .

وانسحب الخدم من البهو ، واندفع السكارى نحو الصندوق عندما أعلن ست هبته السخية ، وأخذ كل بدوره يجرب الصندوق فيجره رفاقه منه فى جنون من المرح ، وكل يأمل أن يكون الصندوق من نصيبه ، ولكن الصندوق كان أكبر من أجسامهم جميعا ، وأخيرا صاح ست :

ـ أيها الملك ... ألا تتكرم بتجربته ؟؟ انه يصلح أن يكون صندوقا لعباءتك ..

واعتذر الملك ضاحكا من الفكرة ، ولكنه لكى يدخل المسرة على الجمع القلق ، المشغوف بتعرف النهاية ، قام من مقعده وخطا نحو الصندوق ، ولكنه لم يلحظ ذلك البريق الخائن ، الذى لاح فى عينى المارد ، والأصابع المرتعشة من الانفعال التى امتدت فى لهفة الى الغطاء ، وصدرت من الجميع صيحة كلها دهشة ، حينما استلقى أوزيريس فى الصندوق ، لأن الصندوق كان يلائمه كأنه صنع من أجله ! ... وهو فى الواقع قد صنع من أجله ...

وفى اللحظة التالية ، وقبل أن يستطيع النهوض ليخرج من الصندوق ، أنزل ست الغطاء فى وحشية وحزم الصندوق ، وأغلق الأقفال ، وثبت الغطاء بالمسامير ، وصب رصاصا مذابا حول الحواف ليزيد من تأكيد القفل ، وصاح ست فى رفاقه :

ـ الى النهر يارفاق ... ومعكم الصندوق ، ولنسرع الى الجبهة حيث ينتظرنا الباقون ، ان مصر أصبحت لنا .. !!

ومروا خلال البهو ، وهبطوا الدرج الى النهر ، ثم ألقوا فيه بالصندوق ، ودارت به الدوامات المائية ، ودفعته الى وسط المجرى ، فدفعه التيار وجرفه الى الأمام ، وفى اللحظة ذاتها انبثق لهب من

الأعماق المظلمة ، أنار القصر والبلدة ، كما لو كان ضوء النهار يغمرهما .

ووقف ست وحيدا على الشاطىء بينما أسرع رفاقه الى القوارب فلما انبثق ذلك اللهب صرخ فى فزع شديد ، وقفز الى أحد القوارب، وأخذ يجدف فارا بحياته بين رفاقه المسرعين .

وأجهدت اليقظة المفزعة ايزيس فراحت فى سبات عميق ، لتراودها أحلام مفزعة مخيفة ، جعلتها تحاول أن تظل متيقظة ... وللمرة الثانية غامت عيناها بذلك الضباب الأحمر ، وبينما كانت صيحة ست الجزعة ، تطوى البهو لتوقظها ، أبصرت بطيف أوزيريس والدم يسيل على وجهه ، وهو يشير بأصبعه الى أعلى ، فهبت من فراشها بقلب يكاد يصيح من الفزع ، وخطت الى حيث يقف الطيف ، ولكن ذراعيها أطبقتا على الفراغ ، وأخذت تصغى فى فزع شديد الى الأصوات المنبعثة من أسفل ، وهى تنتظر عودة زوجها ومولاها ، بعد طويل من الوقت سكن الضجيج ، وتبعه صوت المجاديف تضرب الماء فى شدة وعنف ، فقالت لنفسها ، الآن سيحضر أوزيريس ...

وفى هذه اللحظة انبثق اللهب من النهر ، فتضاعفت مخاوفها ألف مرة ، ونظرت ايزيس الى النهر بعينين فيهما دموع ، ووقع بصرها على ست وهو يندفع الى القارب ، ويجدف بجنون على الماء قبل أن يتلاشى اللهيب ، وتلاشت الأصوات حينما ابتعدت القوارب ، ولفت البلدة موجة من السلام والسكينة ، وايزيس لاتزال تنتظر... ولكن الذى تنتظره لن يعود مرة أخرى .. فقد ذهب الى غير رجعة ... لأن ملك مصر أوزيريس قد مات . قد قضى نحبه ضحية أخيه الشرير وحسده الأثيم .

- ٧ -

كان الفجر ينشر أشعته الشاحبة على الكون الحزين ، حينما أفاقت ايزيس من اغمائها الطويل ، الذى راحت فيه بالأمس ، وكانت أول ما أفاقت لا تذكر شيئا ، وكأنما مرت يد النسيان على عقلها ، فأخذت تجهد نفسها فى تذكر أحداث الأمس ، وفجأة اندفعت الى رأسها أحداث الليلة الماضية ، وازدحمت فى ذاكرتها ، فسقطت فى فراشها ذاهلة من الرعب ، ونهضت بعد جهد كبير ، وبدأت تعد نفسها للمستقبل ، فقد أدركت أن مولاها قد مات ، وأن اليد الشريرة التى دفعت به الى هذا المصير المحزن ، ستعود سريعا لتقبض على هذا التاج، ولشد ماخشيت مايضمره ست من نوايا السوء ، ولشد ماكانت تلك المخاوف سريعة التحقق ....

ولم تنقض عشرة أيام على قتل أوزيريس ، حتى رابط جيش أجنبى قوى فى السهل المنبسط أمام طيبة ، وأقبل مع المساء ضابط رسول ، وتقدم الى أسوار القصر ، وطلب رؤية الملكة ، ولكن ايزيس رفضت أن تراه ، وأمرت قائد الحرس أن يتسلم منه رسالته وانحنى الرسول وقال :

ــ ان ملك مصر يهدى أخته ايزيس تحياته المتواضعات ، ويعرض عليها الزواج ، فاذا تعطفت وقبلت فانها ستظل تقاسمه عرشه وحكمه للبلاد ، كما كانت من قبل ، أما اذا رفضت ، فان ست يعلن الحرب على البلاط والبلدة معا ، ولن يبقى فيها حجرا على حجر .... ولن يبقى على انسان ينقل القصة الى الأجيال القادمة ....

ونقل الحارس الرسالة الى مولاته ، فلما انتهى من كلامه قالت ايزيس :

ــ وماذا تقول ياحوتب ...؟

ولم يكن قائد الحرس الا ذلك الضابط الشاب الذى أنقذه أوزيريس من غضب الملك السابق .

ــ أقول ان ذلك المغرور لو كان أمامى أيتها الملكة ، وكنت حرا أفعل ما أشاء ، اذن لخلصت مصر من شره قبل ان يكمل الانسان المائة عدا ..

ــ وبقية الضباط ماذا عساهم قائلين ...؟

ــ مثلما قلت أيتها الملكة ... ان قواتنا الآن قليلة ، لأن ذلك اللعين قد انتهز فرصة تغيب قواتنا فى الشمال ، ولكننا لن نسلم المدينة مابقى فينا رجل على قيد الحياة .

ــ اننى أعلم أنك ستبذل ماف وسعك ، ولكننى أخشى أن تكون قواتنا من القلة بحيث لا تستطيع مقاومة ، فاذهب الآن واتخذ من الاجراءات ما تراه أنسب ، أما عن نفسى فاننى سأغادر طيبة فى الحال ، يجب أن أمضى ، لأبحث عن أوزيريس مولاى ومولاك ...

ــ أبتهل الى الآلهة أن تجديه أيتها الملكة ...

نطق حوتب فى ضراعة بتلك العبارة ثم انصرف .

واستمر الدفاع ستة أيام ، فتحت بعدها ثغرة فى الأسوار وتدفق قطيع ست الأسود الى الداخل ، وأعمل هؤلاء البرابرة السود ، القتل والتذبيح فى الرجال والنساء والأطفال ، حتى سالت الدماء أنهارا فى الطرقات ، وارتمى القتلى فى أكوام بشرية كثيبة ، ثم تقدم العدو الى القصر ؛ حيث تجمعت بقية الجيش المخلص .

ومرة أخرى أرسل ست يعرض الأمر على ايزيس ، علها ترضى به زوجا ؛ وتغير رأيها ؛ ولكنها لم تكترث حتى بالاجابة عليه ... أتتزوج من قاتل زوجها وأخيها ... ؟ أترضاه ملكا وسيدا ... ؟ أن مجرد التفكير فى ذلك جعل جبينها الملكى يندى بالعار ...

وفى اليوم التالى نجح رجاله السود ؟ فى تسلق الســـور الخارجى للقصر ، وأدركت ايزيس أن النهاية تقترب ...

وعادت ايزيس الى مخدعها ، وبعد أن أهدت بعض الهدايا الى وصيفاتها طلبت منهن الفرار عن طريق النهر قبل فوات الأوان ، وأمرت بأن تترك وحدها ، وبعد أن ألقت عن جسدها وشاحها الحريرى ، لفت نفسها فى نسيج أبيض ، وتركت شعرها النحاسى ينسدل على جسدها فكان التماعه فى ضوء الشمس يشبه ألسنة اللهيب .

وبعد أن مددت نفسها فى الفراش ، وذراعاها مبسوطتان أخذت ترتل ترنيمة غريبة ، تفيض بالغموض ، وأخذ كل ما حولها يتغير فى بطء ، بينما هى مسترسلة فى الترتيل ، وتلاشت جدران الغرفة ، وتلاشى الأثاث ، وحتى الفراش الذى كانت ترقد عليه قد تلاشى .... ؟ كل شىء قد غدا منطلقا من قيوده ، لا يحده شكل من الاشكال ؟ غدا خيالا وكأنه لم يكن الا مجرد حلم من الأحلام ...

وأخذت قعقعة السلاح فى الخارج تقترب وتقترب .. ، ولكن ايزيس لم تعد تخشى شيئا ؟ فانها لم تعد تمت الى الأرض بصلة ما ؟ ولم تكن عبثا دراستها للتراتيل والتعاويذ ، ولم تكن عابثة حين حفظت كلمات القوة عن رع ذى الجلال ...

ودفع ست بالفتاة المخلصة التى كانت تقف على باب سيدتها جانبا ، واندفع الى المخدع ، ولكن الملكة الجميلة ايزيس لم تكن واقفة فى انتظاره ... وعندما خطت قدمه عتبة الباب ، رفرف طائر صغير بجناحيه ، ناشرا ريشه اللماع ، الذى يشبه رقائق النحاس الأحمر ، وطار على الفراش ..

وفى صيحة حزينة انسرب الطائر من النافذة وطار على النهر ...

وهكذا بدأت ايزيس بحثها عن مولاها أوزيريس الحبيب .

- ٧ -

لم تكن ايزيس حين طارت عن القصر ، قد أخذت وجهة معينة للبحث عن زوجها الفقيد ، ولكنها كانت خلال طيرانها تهبط الى الأرض فى صورة آدمية ، تسأل من تظن عندهم العون فى مهمتها ، وانقضت بضعة أيام دون أن تقف للجسد الحبيب على أثر ، ولكن الأمل بسم لها ذات يوم .

كانت هناك امرأة منحنية على الماء تملأ جرتها من النهر ، حين تقدمت منها ايزيس تسألها عن الصندوق ، الذى يحمله التيار ، ولكنها لم تكن تعلم شيئا ، غير قصة سمعتها من زوجها الراعى ، فقد فاجأ عددا من المخلوقات الغريبة فى الوادى . اذ خرج يرعى ذات صباح فى البكور ، كانت تلك المخلوقات غريبة حقا فوجوهها وأجسامها آدمية ، ولكن سيقانها وأقدامها كانت كسيقان الماعز ، وقد نبتت على جوانب رؤوسها قرون كقرونها ، ويسميها الرعاة « جنيات الأحراج » ويعتبرونها الحارسة الأمينة لقطعانهم ، وسيد هذه الجنيات يدعى « بس » .

واستمرت المرأة فى قصتها « وقد أقبلت احدى الجنيات على زوجى فخاف وهم بالفرار ، لأنه من سوء الطالع أن يقابل الانسان جنية بعد شروق الشمس ، ولكنه لاحظ أن الشمس لم تشرق بعد ، ولذلك وقف حتى أقبلت عليه ... »

وسألتها ايزيس بلهفة عما قالت الجنية ... فاستمرت المرأة فى حديثها « لقد طلبت من زوجى أن يصغى لكلماتها جيدا . ففى الليلة الماضية ، بينما الجنيات يلعبن فى الغاب على ضفة النهر ، ظهر ضوء شاحب يطفو على الماء ، ووسط ذلك الضوء كان هناك صندوق ، وقد قالت الجنية ان هذا الصندوق يضم جسد ملككم وانه لماض مع

التيار ... فاذكر ذلك جيدا ...» وقبل أن يتمكن زوجى من الكلام انطلقت الجنية الى رفيقاتها ، وفى اللحظة التالية تلاشى الجمع ... ثم قالت معقبة على القصة « ولكن من المؤكد أن الملك ليس فى الصندوق ... فهو فى طيبة ... ونظرت تلتمس التأكيد من السيدة الجميلة ، الواقفة الى جوارها ؛ فقالت ايزيس : « لقد قالت الجنية الحق ؛ فان ملككم قد لقى حتفه فى قسوة ، وانطلق جسده مع التيار ، وهنالك من يخصه بالحب ويبحث عن جسده » ...

واغرورقت العينان الحزينتان بالدموع ، وانكبت القروية على وجهها فوق الرمال ، وقبلت طرف وشاح ايزيس ، وهمهمت فى خشوع « مليكتى العظيمة ، اننا نحن الذين نعيش بعيدا عن طيبة لانعلم شيئا من ذلك ، ألا رعتك السماء فى بحثك هذا ... »

وابتعدت ايزيس متتبعة مجرى النهر ، فلديها الآن أنباء صحيحة واضحة ، وانطلقت بأقصى سرعتها على الماء ، وقرب الدلتا كانت لها وقفة ... فالنهر هنا يتفرع الى فرعين كبيرين ، وهى حيرى لا تعلم أيهما تتبع ، فلو أنها اتبعت الخطأ فان ذلك يعنى اضاعة الكثير من الوقت ، وربما ضاع جسد أوزيريس الى الابد ...

وفى هذه الحيرة وقع بصرها على جمع من الأطفال يلعبون على النهر ، ولقد أحبت ايزيس الأطفال جميعا ، وخيل اليها أنها ستنسى أحزانها ؛ اذا قضت معهم لحظات قصارا ، فعادت الى صورتها البشرية ، ودرجت على الضفة قريبا منهم ...

كان أحد الأطفال يبكى بحرقة ، فتناولته ايزيس بين ذراعيها ، وعبثا حاولت حمله على الكلام والاجابة على أسئلتها ، ولم يزد الطفل على أن جعل يحملق فى النهر كمن يبحث عن شىء فقد منه ، وبدأت ايزيس تسأل رفاقه الصغار ، وعندئذ بدأ الطفل الباكى يتكلم فى براءة حزينة :

ـ أريد الصندوق الجميل ...!!

ـ أى صندوق ...؟

ـ الصندوق الجميل الذى كان يلمع فى النهر

ـ فى النهر .... أين هو ...؟

وأعملت فكرها سريعا فلا يمكن أن يكون هناك صندوقان فى النهر ... !؟

ـ هناك ... بين أعواد الغاب

ـ وذلك الصندوق ماشكله ياصغيرى ؟

ـ صندوق طويل جميل ... وكان يلمع .. وعليه أزهار جميلة ... ولقد لمسته بيدى ولكنى لم أستطع اخراجه من الماء .

ـ ومتى كان هناك ... ؟

ـ فى صباح الأمس ... وقد عدت الى الدار أبحث عن أبى حتى يخرجه لى ، فلما عدنا من الدار كان الصندوق الجميل يمضى مع التيار ، وقد حمله النهر بعيدا .

ـ ياصغيرى المسكين ... لاتحزن ... وسأحضر لك صندوقا آخر ... تعال هنا غدا فى الصباح وستجد صندوقا جميلا تستطيع حمله بنفسك .

ـ صندوق جميل ...؟

سألها الطفل بلهفة وكأنما أنساه حزنه السابق أمله فى الحصول على كنز جديد .

ـ وهل سيكون لامعا كالآخر .. ؟ ومحلى بالزهور الجميلة ؟

ـ سيكون جميلا لامعا كالآخر تماما ، ولكنه أصغر منه حتى يمكنك حمله بمفردك ... والآن قل لى : أى طريق سلك الصندوق فى النهر ... ؟

ـ على ذلك المجرى ...

ـ شكرا لك ياصغيرى ... والآن سأمضى للبحث عنه ...

ـ هل ستحضرينه مرة أخرى من أحلى ...؟

ـ ليس هذا ... فقد لا أعثر عليه ... ولكن صندوقك الصغير سيكون فى انتظارك هنا غدا ...؟

وعندما أسرع الصغير الى النهر فى الصباح الباكر ، كان هناك على الرمال حيث لقى الربة ، صندوق ملقى يلمع فى أشعة الشمس المشرقة كالفضة ، وكان الصندوق معجز الصنع ، وفى فرحة امتلاكه سرعان مانسى الصندوق الضائع ، الذى بكى من أجله كثيرا ...

واستأنفت ايزيس بحثها وهى تتوقع بين ساعة وأخرى أن تجد الصندوق ، ولكن النهر اتسع فى الدلتا وأصبح لايعدو مستنقعا واسعا ينبت فيه البردى كثيفا متلاصقا ، وهكذا كانت مجبرة أن تتخذ حيطتها حتى لاتمر به دون أن تنتبه اليه ... ومرت أيام عدة دون أن تقف لذلك الصندوق على أى أثر ...

وذات مساء تهاوى طائر منهوك ، على سقف كوخ مهدم ، على شاطىء المستنقع ، وكان الاجهاد والتعب يبدوان عليه لأن رأسه كانت منكسة ، وكان يجذب أنفاسه فى جهد ، ودار الطائر بنظره فيما حواليه ، وأخذ يهمهم بكلمات غير مفهومة كمن يخاطب نفسه..

ولعلك أدركت أن الطائر لم يكن الا ايزيس وقد أنهكها طول البحث فقد سارت مع النهر فى كل منعطفاته ، وفتشت كل مجموعة من البردى ، وبحثت خلف كل شجرة وفى ثناياها ولكن بلا جدوى ...

فانها لم تعثر على أى أثر يدل على الصندوق : ولقد وصلت فى بحثها الى مصب النهر دون أن تقف لجسد أوزيريس على أثر ، فهل أخطأ بحثها الصندوق ... ؟ أو حمله النهر فألقاه الى البحر الرحيب الرهيب ...؟

لقد انقضت شهور عديدة منذ بدأت ايزيس بحثها المضنى ، وقد مرت بها أيام طافحة باليأس المرير ...

وقالت لنفسها « سأقضى الليل فى هذا الكوخ ... وقد يشهد الغد نهاية المطاف ... »

وكانت تعودت أن تطمئن نفسها بهذا الأمل كلما ألح عليها اليأس ، وجاء الغد ومضى ... ولكنه لم يشهد نهاية المطاف ...

وأوشكت ايزيس أن تدع سقف الكوخ وتهبط الى الأرض حين سمعت نغما ينبعث من خميلة من أشجار الحور ، وتبعت ذلك النغم ضحكات رنانة ، وفى اللحظة التالية كانت تحلق فوق الأشجار فى اتجاه مصدر الصوت ، وحلقت فى الجو لترى المنظر الغريب فى أسفل ... !!

فهناك كانت ربوة مكللة بالورود البرية والياسمين ، تناثر عليها القرنفل الوحشى والسوسن ، وعلى جذع شجرة أسقطتها الأعاصير جلس رجل يحيط به جمع من المخلوقات الصغيرة وقد أخذ أفراده فى ضروب من الأحاديث المرحة ، والضحك الرنان ، وهم يصفقون طربا ، وكان الرجل ممسكا بيديه مزمارا من أعواد الغاب وقد ربطت أجزاؤه الى بعضها البعض باحكام ومهارة ، ولم يدنه الرجل من شفتيه حتى انبعثت منه أنغام كلها طرب ، وانتشر الجمع الصغير حوله وأخذ يرقص رقصة جميلة ، واستطاعت ايزيس عندئذ أن ترى الرجل الجالس ، فلم يكن فى الحقيقة رجلا ، بل كانت ساقاه وقدماه كالماعز ... وكان له قرنان ...؟!

لقد عرفته اذن ... انه « بس » أقدر الموسيقيين جميعا ، كان « بس » منهمكا فى مزماره حتى يرقص صديقاته من جنيات الاحراج ، وبينما تلك النغمات السواحر تنبعث ، أخذت الجنيات فى تقدم وتقهقر ، فى خطوات وئيدة متسقة أول الأمر ، تطورت فيما بعد الى لفات ودورات بطيئة نوعا ، ثم أسرعت الدورات مع النغمات

فى عنف ووحشـية ، وأسرعت الاقدام الصـغيرة فى الدوران حتى أصبحت الراقصات كتلة من الالوان ، تدور وتدور بلا وعى ،وانتهى العزف بنغمة حادة ، وأخذت الكتلة الملونة تعود الى شكلهـــا الاول ، والتف الجمع ثانية حول « بس » رب الموسيقى فى سعادة ومرح ، وضج الجمع وصخب طالبا من « بس » أن ينفخ فى مزماره ليرقصوا مرة أخرى .. مرة واحدة فحسب ..

وقال « بس » لن يكون ذلك الليلة ... ولكن فى الغـد اذا شئتم ، أما الآن فسأمضى الى الجنيات اللواتى ينتظرن عودتى ، هيـا الى دوركم يا رفاق ... وسأوقع لكم لحنا وأنتم تنصرفون وتنـاول مزماره وأخذ ينفخ فيه بينما السرب المرح يطفر بعيـدا ... ويغنى أغنية مرحة .

وأوشك نصف الآدمى أن يقوم عن الشجرة الملقاة حينما فوجىء بوجه آخر أمامه ، ولم يكن وجه جنية من جنياته هذه المرة ، وانما كان وجها بشريا جميلا ...! !

ـ هل أنت « بس » ؟

ـ انه أنا ... أيتها الجميلة

ـ انك أبصرت بصندوق غريب يطفو على النهر ... فهل لك أن تدلنى أين راح ؟

ـ الصندوق الذى يحوى جسد أوزيريس ... ؟ نعم ... لقد رأيته ... لن تجديه هنا ، لقد ذهب ... لقد ذهب ..!!

ـ ذهب ..؟! أتقول انه ذهب ..؟! هل قدر لى ألا أرى سيدى مرة أخرى ...؟؟

صرخت ايزيس بتلك العبارة وقد حـوت صرختهـا تلك ، كل الاعياء والحـزن ولوعة القلب التى فى العـالم ، لقـد كانت صرخة يأس وجزع

ـ لا تبتئسى ... فقد تستطيعين اللحاق به ، وان قـوتك يا ايزيس لكبيرة ... أنصتى ... ان الجنيات يغنين من أجلك وان علمهن ليتسع حتى يشمل البحار

وبينما « بس » يتابع حديثه ذاك ، حمل نسيم المساء الهادىء ، أغنية تتردد لطيفة حلوة ، ولكن الحـزن والأسى والرثاء كانت تفيض منها جميعا ، وكانت الأصوات تخفت وتعلو بينما يحملها النسيم عبر الخميلة ، من تلك الجوقة الخفية ... وأخذت ايزيس تصغى فى انتباه حالم ، وكأنما كان قلبها يتشرب كل كلمة من كلمات الأغنية :

أيتها السيدة الجميلة ... أنظرى ..!
ان من تبحثين عنه ... ليس هنا ..!!
ليس على مياه النيل الداكنة التى ترينها ..!
فاذا كانت بك رغبة فى العثور عليه .. فاذهبى بعيدا ..
واتركى وراءك تلك المستنقعات الحزينة ..
وابحثى فى قلب شجرة الحور ..
وستجدينه هناك ... ملفوفا باحكام فى أغصانها ..
هناك يرقد ضحية ست مختفيا عن الأنظار ..!!
ضحية القسوة التى يندى لها الجبين ...
هناك تثوى جريمة المارد متشحة بالسواد ..
وستخرج الى النور بقوة حبك ..!
لاتهنى ... ولا تضعفى ... ان واجبك لم ينته بعد ..
وان حبك العظيم سينتصر بقوته ..
وعندئذ سيعود اله الكون ظافرا ليحكم من جديد ..
ويتلاشى الباطل ... ويبقى الحق ..
ويتحول الظلام الدامس الى نور مبين ..!!

وانقطع الغناء ولكن ايزيس مازالت تصغى فى انتباه حالم ، فان ذلك الغناء قد مس شعورها مسا عنيفا ، ودار بفكرها أنها موشـكة أن تعلم الكثير عن مولاها الفقيد ، وقالت مخاطبة « بس » :

ـ ما هذا ...؟ لقد سمعت عن شجرة الحور ، وقسوة ست ، وهزيمة الباطل وانتصار الحق ، فهل لديك ايضاح أكثر من ذلك ... ؟

ـ أصغى الى أيتها الربة ... وسأخبرك بما أعلم ، منذ أيام اندفع الصندوق الذى عنه تبحثين الى البحر وتقاذفته الأمواج حتى استقر فى بيبلوس ، بين أغصان شجرة من أشجار الحور ...!!

ـ وهل سأجده هناك ...؟

ألقت ايزيس هذا السؤال بلهفة وجزع ..!

ـ ليس العثور عليه بالسهولة التى تظنين ... فشجرة الحور قد نمت بسرعة ، وطوت الصندوق فى جوفها ، فلم تعد رؤيته ممكنة ، وقد مر ملك بيبلوس بهذه الشجرة خلال الصيد ، فلاحظ ضخامة جذعها ، فعزم على أخذها .

ـ حسنا .. استمر فى قصتك

ـ وفى اليوم التالى كان رجال بيبلوس الأشداء ، يقطعون الشجرة ، ويحملونها على عربة الى قصر الملك ، حيث استخدمت كدعامة تحمل سقف البهو .

ـ ولا يزال الصندوق بداخلها ...؟

ـ نعم ولا يعلم بوجوده الا أنا واخواتى .. ولن نتكلم ... أما الشجرة فلا تزال هناك ترفع سقف البهو .

ـ لك شكر ايزيس ... هل هناك ما أستطيع عمله من أجلك لأبرهن لك على اعترافى بجميلك ... ؟

ـ ان قوة ايزيس لكبيرة ، وأنا مشوه الخلقة ، ليس لى وقار الانسان ولا رشاقة الحيوان ، والانسان والحيوان كلاهما يضحكان

منى ويسخران من نقص خلقتى ، واننى لأبتهل اليك أن تهبنى عطفا يجعلهما ينظران الى بعين التقدير بعد ذلك

ـ لقد أجيب سؤلك يا « بس » ولن يلفظ الناس اسمك بعد اليوم الا مصحوبا باحترامهم لك ، وتقديرهم لموسيقاك

ولا يزال آلاف الناس الى يومنا هذا لا يستطيعون أن يصفوا لك « بس » ولكنهم يعلمون أنه اله من آلهة العصور الغابرة كان يوقع موسيقاه الالهية على ناى من الغاب ...

- ٩ -

كانت أسوار قصر الملك مليكاندر تلمع تحت أشعة الشمس في الصباح ، وكان الهواء راكدا ، لاحياة فيه ، وحتى المياه المنبثقة من النافورة الرخامية ، كانت كأنها ترتفع وتتساقط فى كسل وبلادة ، وكانت أشجار السنط كأنها تدعو السابلة ليتفيأوا ظلها ، وكأنما تلك السيدة التى أنهكها السفر الطويل قد استجابت لهذا الدعاء فوقفت لتستريح فى ظلها الوارف ...

وتوقف كثير من المارة يسألون السيدة ذات العيون الحزينة عن أمرها ، ولكنهم جميعا لم يجدوا منها الا الصمت الطويل ، ولم تقبل على ماحولها ، حتى أقبلت وصيفات الملكة ...

وتقدمت الوصيفات يستطلعن أمر السيدة الغريبة ، ولم يكن سواهن يجسر على الدنو من هذه الأشجار ، الا اذا كان ذا صلة بالقصر ، وتقدمت منها احداهن ، وكانت جميلة مشرقة ، لا تتعدى الرابعة عشرة من عمرها وسألتها :

ـ هل تبحثين عن أحد هنا يا سيدتى ..؟

ـ نعم ... ان سيد الناس هنا ... وقد جئت ألتمسه ...

ـ ان الملك فى رحلة للصيد خارج بيبلوس .

قالت الفتاة ذلك وقد ظنت أن السيدة الغريبة تبحث عن سيدها الملك

ـ أنا لا أتكلم عن ملككم فان الغريب يبحث عن غريب آخر استقر بينكم منذ زمان طويل ، ولكن أحدا لا يعرف ذلك ، رغم أن اسمه يتردد على كل لسان ...

وعندما لاحظت نظرة الحيرة والتساؤل على وجه الفتاة تابعت كلامها :

ـ تعالى هنا وحدثينى عن ذلك المكان ...

وكانت الفتاة كأى أنثى على استعداد لأن تتحدث وتثرثر ، وبعد لحظات قصار ، كانت تتحدث الى السيدة الغريبة وكأنها تعرفها منذ فجر حياتها ، وعندما جلست الفتاة أمامها أخذت ايزيس ـ لأنها كانت نفس السيدة الغريبة ـ تعبث فى شعرها وأخذت تضفره فى ضفيرة كبيرة كادت أن تصل الى الارض ، وسألتها الفتاة :

ـ من تكونين ياسيدتى ...؟

ـ أنا راعية شعبى وطبيبته ...

ولاح على الصبية مرة أخرى أنها شدهت ، ولكنها سألتها :

ـ وهل يمكنك العناية بشخص مريض ...؟

ـ اذا شئت ذلك ...

وظلت الفتاة مسترسلة فى التفكير ، وعلى حين فجأة دق ناقوس كبير ، فهبت واقفة وقالت :

ـ يجب أن أنصرف الآن ... هل ستقيمين هنا أم ستواصلين الرحيل ...؟؟

ـ عندما تسلم الشجرة الاله الراقد فى جوفها سأرحل ... !!

ونظرت اليها الفتاة فى رثاء واشفاق ولكن الكلمات كانت لا تفيد فى هذا المقام ، وأنقذها من هذا الموقف صوت الناقوس ، يدعوها للمرة الثانية ، فودعتها فى عجلة وانصرفت .

وكانت الفتيات الباقيات قد انصرفن ، فلما وصلت الفتاة الى الجناح الملكى كانت اثنتان من الجوارى على وشك العودة للبحث عنها ، فقالتا لها ان الملكة تريد التحدث اليها .

وقالت لها الملكة عندما رأتها : « لقد تأخرت يا مليتا ؟ فهل كنت تلعبين وحدك ، فلم ترجعى مع أخواتك ؟ أو هى ٠٠؟ » ووقع بصرها على الضفيرة التى ضفرتها ايزيس فى شعر الفتاة فأضافت « هل اهتمامك بزينتك هو الذى استغرق معك كل هذا الوقت ؟ ٠٠٠ من فعل ذلك ياطفلتى ؟ »

ولم تنتظر اجابة على ذلك بل قالت « انك لاتستطيعين بمفردك أن تضفرى شعرك هكذا ٠٠٠ »

وقالت مليتا جازعة « ان سيدة عند أشجار السنط هى التى ضفرت شعرى ، وأنا أتحدث اليها ، لقد قالت انها طبيبة ، واننى لأتساءل اذا كان فى امكانها تمريض الأمير يامولاتى ٠٠؟ »

وصاحت الملكة ساخرة « طبيبة ٠٠؟ فعلا ٠٠٠ أتظنين أن دعية متجولة تستطيع أن تنجح حيث أخفق أطباء البلاط جميعا ٠٠؟ ولكن بأى شىء عطرت لك شعرك ٠٠ ؟ ان عبير الورود البرية والبنفسج يفوح من الضفيرة ، وتلك الزهور لاتحتمل شمس بيبلوس المحرقة ٠٠ ، من تكون تلك المرأة ٠٠ ؟ » وأجابت الفتاة « لقد قالت انها راعية شعبها ، وحين سألتها ان كانت ستقيم هنا قالت : (عندما تسلم الشجرة الآله الراقد فى جوفها سأرحل مرة أخرى ٠٠٠) أما ماتعنيه بهذا القول فلم أستطع فهمه يامولاتى ، وربما تفهمين ماتقصده ياصاحبة الجلالة » .

ومن الواضح أن عشتروت ملكة بيبلوس لم تفهم أكثر مما فهمت الفتاة ، ولكنها فى كبرياء الملكات لم تصرح بذلك ، واستغرقت لحظة فى تفكير عميق ، ثم قالت للفتاة « ابحثى عن السيدة الغريبة وأحضريها الى هنا » .

وأسرعت مليتا فرحة الى حيث تجلس السيدة الغريبة فى ظل أشجار السنط ، فوجدتها تحدق فى مياه البحيرة فى ذهول ، كما وجدتها أول مرة ، فقالت لها ان الملكة ترغب فى رؤيتك ، فهل تذهبين اليها ؟» وكأن الفتاة أدركت أن السيدة الغريبة من طينة غير طينة البشر فأحست

برهبة لم تدرك مداها فلم تقل لها ان الملكة أمرت بحضورها ، وكأنها أحست أن هذه السيدة لن ترضخ حتى لأوامر الملكة .

وقالت السيدة الغريبة بعد فترة قصيرة « سأذهب اليها فدلينى على الطريق » وسارتا معا عبر الممشى الاخضر حتى المدخل الضخم ، الذى يؤدى الى القصر ، وسرت بجسد ايزيس قشعريرة عندما خطت عبر الدهليز الطويل ، لأنها أحست أن الكنز أصبح فى متناول يديها .

وفى القصر وقع بصرها على دعامة فخمة تحمل السقف ، لقد كانت جذع الشجرة الذى تحدثت عنه الجنيات ، كانت مستقيمة وثابتة ، ولكن الأغرب من ذلك تلك الأشكال البارزة على اللحاء ، فقد كانت تبدو عليه وجوه أناس وحيوانات ، داخل اطار من أزهار اللوتس ، ويعلو ذلك جميعا من الناحية التى تواجه الباب ، تاج الشمال والجنوب ، ولما اقتربت ايزيس من الدعامة ، تبين لها أنها نمو طبيعى فى اللحاء ؛ ولا شك أن تلك الغرابة وهذا الجمال هما اللذان أغريا الملك مليكاندر ودفعاه الى قطعها وحملها الى قصره .

ووقفت ايزيس لحظة دون حراك ، وشحب لونها ، وارتعدت أطرافها ، ولكنها تمالكت نفسها أخيرا فهنا يرقد سيدها الحبيب ، وعما قريب ستنال جزاء بحثها ثم تستريح ، ولما استدارت مليتا لترى سبب تلبثها ، تمالكت ايزيس نفسها وسارت الى الأمام تتبع الفتاة ؛ خلال تيه من الحجرات .

وكانت ثرثرة الوصيفات والجوارى تستحيل الى همس خفيض حين تمر بهن ايزيس ٠٠٠ هل كان ذلك الوجه الملكى مجرد وجه امرأة عادية ٠٠ ؟ وهل يمكن أن تكون جوابة تذرع الأرض ٠٠٠ ؟ ولكن ايزيس لم تلق بالا اليهن ، وبعينين تتطلعان الى السعادة المقبلة ، التى انبثقت مشرقة أمام ناظريها ، تقدمت الى مخدع الملكة .

ونظرت اليها عشتروت فى دهشة ورهبة معا ، فلم تكن السيدة الغريبة من النوع الذى كانت تنتظره ، وماتت على شفتيها ألفاظ

الكبرياء التى كانت قد أعدتها للترحيب بها ، وسقطت حزمة من أشعة الشمس فجأة على شعر ايزيس الأحمر ، فاستحال الى تاج من لهيب ، وقد كان هذا المنظر ، وما أيقظه من ذكريات نائية باعثا لها على ادراك بعض الحقيقة ، ولذلك فانها حينما تكلمت كان صوتها رقيقا ، وفيه الكثير من الشفقة وقالت :

ـ ان هذه الفتاة أنبأتنى أنك طبيبة ؛ فهل تستطيعين أن تمرضى ولدى وتعالجيه ؟

ـ أمرضه .. ؟ نعم ، أما أن أعالجه أو لا .. فهـذا يتوقف عليك أنت ..

ـ أحضرى الأمير الى هنا .

أصدرت الملكة هذا الأمر الى مليتا ؛ وسألت ايزيس :

ـ من تكونين ... ؟ ومن أين أقبلت ؟ لقد أتيت معك بأريج أزهار الربيع الذى أعهده فى جبال وطنى ، فهل أنت من تلك الأرض..؟

ـ لقد جئت من أرض بعيدة بأقصى العالم ، وقد عشت مع زوجى سعيدين زمنا طويلا ، ثم قضى عليه فى قسوة ، وأبعدت أنا عن تلك الأرض ..

ـ يالك من تعسة ياسيدتى .. لقد ذقت أنا أيضا مرارة الحزن..!

ودخلت مليتا تتبعها مربية تحمل الأمير على وسادة ، وسألت عشتروت بلهفة وهى تقدم الطفل الى ايزيس « هل تستطيعين معرفة دائه ؟ انه يذوى ، وأمهر أطبائنا لا يملك له شيئا ، أعيدى اليه الصحة والقوة ولن يرفض الملك لك طلبا ، وستصحبك دائما دعوات أم تحمد لك هذا الصنيع » .

وجالت فى مآقيها دموع حرار ...

وحملت ايزيس الأمير الطفل على ذراعيها دون أن تفوه بكلمة ، وصدر عن الطفل أنين كأن به ألما ، وارتسمت علامات الألم على ذلك

الوجه الجميل الشاحب ، وحدقت ايزيس فى العينين المغمضتين وقد وضعت أناملها على حاجبيه ، ياللمعجزة ... ان العيون المغمضة تتفتح ... وهذه ابتسامة باهتة ترتسم على الشفتين البيضاوين ..

وخلعت ايزيس عن الطفل برنسه الحريرى ، وأخذت تمرر يدها الرطبة على الجسد الهزيل ، وأخيرا وضعت اصبعها فى فمه فأخذ يرضعه بلهفة لدقائق عدة ثم أعادته لأمه قائلة لها ببساطة : « سيصبح ابنك أحسن حالا » .

ولم تمض أيام ثلاثة حتى كان الطفل يجرى هنا وهناك ، فى مرح الطفولة وبراءتها وعدم اكتراثها بشىء .. !

وجعلت الملكة ايزيس على رأس مربيات القصر ...

- ١٠ -

وأخذ الأمير ينمو ويزداد رشاقة يوما بعد يوم ، وكان ذكاؤه وقوة جسمه موضع اعجاب الجميع ، لقد أنقذته ايزيس حيث أخفق الأطباء فى انقاذه ، وكان يبدو أن السيدة قادرة على تنمية مداركه ، كما نمت جسمه ، وكان الأمير الطفل يقضى النهار برفقة المربيات الأخريات ، ولكنه كان يقضى الليل برفقة ايزيس ، فكان ينام فى مخدعها حيث لا يسمح لأحد بمقابلته .

وسارت الأمور على هذا المنوال بضعة أيام ، بدأت بعدها الشائعات تتوالى عما يحدث فى ظلمة الليل من أفعال غريبة فى غرفة القادمة الجديدة ، فالأصوات الغريبة كانت تنبعث من خلف الأبواب الثقيلة ، وكانت تشبه ضحكات طفل تمتزج بصوت فرقعة اللهيب ، وكانت الأضواء البراقة تنبعث من تلك الغرفة حين ينبغى أن يكون الجميع نياما ، وكان الى جانب ذلك كله صوت انثوى رقيق ينبعث صافيا جميلا كرنين أجراس المساء ، يحمله هواء الليل الساكن من بعيد .. وكانت الأضواء تتلاشى ، والموسيقى تتوقف ، عندما تطرق الباب مربية الأمير السابقة ، وكانت عندما تدخل الغرفة تجد الطفل والمربية غارقين فى سبات عميق ...

وهكذا سخر القدر منها مرتين ... ولم تجد بدا من اخبار الملكة بما يحدث واندفعت تروى قصة طويلة ، وهى فى أثناء ذلك بين الخوف والغضب : « لست الوحيدة التى ترى تلك الأشياء وتسمعها يا مليكتى .. ! ان وصيفاتك جميعا يؤكدن ما رأيته ، وناى أيضاً ، حارس الردهة ، يقول انه منذ وصلت السيدة الغريبة ، وهو يرى عندما ينتصف الليل ، طائرا ينبعث من غرفتها يحوم حول الدعامة المنقوشة التى فى البهو ، وهو يرسل فى أثناء تحويمه صرخات حزينة ، وقد

حاول ناى ذات مرة أن يزجره فوجد نفسه لا يستطيع حراكا ، بينما أخذ الطائر ينظر اليه بعينين حزينتين ، ويقول ناى ان عينى الطائر هما نفس عينى المرأة الغريبة .

وقالت الملكة « أقاصيص لاتدل الا على الغباء ... وسأتأكد بنفسى من كذب هذا الكلام » ، وفى الليلة ذاتها أخفت الملكة نفسها فى مخدع ايزيس ، وقد حدثتها نفسها بأن ما تعمله لايليق بها كملكة وأنبها ضميرها لأنها تتجسس على المرأة التى أسدت اليها الكثير ، فضلا عن أنها ضيفتها ، ولكن قصة المربية أقلقتها ، وألحت عليها عاطفة الأمومة فى أن تحمى طفلها من كل شر محتمل ، وأبصرت ايزيس تدخل غرفتها فتقبل الطفل النائم ثم تعود الى فراشها .

ومرت الساعات فى بطء ، ولم يحدث شىء ما ، وبدأت الملكة تفكر فى أنها كانت من الغباء بحيث أصغت لما يرويه خدمها من أقاصيص وكانت فى مخبئها فى وضع غير مريح على الاطلاق ، ولن تملك فرصة الخروج من هذا المخبأ قبل حلول الصباح ...

وأخذت الريح تئن فى الخارج ، ثم ترتفع تلك الأنات فتصل أحيانا الى مايشبه العويل ، وكان ذلك نذير عاصفة مقبلة ، ولقد كان من العقل أن تذهب عشتروت فى هدوء الى فراشها بدلا من الاستماع الى أقاصيص العجائز ، وبدلا من أن تفقد منزلتها فى نظر حاشيتها ، وفضلا عن ذلك فقد خاطرت باتخاذ خطة العداء نحو المرأة التى تدين لها بالفضل العميق .

وعلى حين فجأة اهتز كل عصب فى جسدها القلق ؛ وتوقعت حدوث أمور جليلة ، فقد انبعث اللهب من كل مشعل فى الغرفة ونظرت عشتروت من مخبئها ، فرأت ايزيس واقفة وسط الغرفة وقد حملت الطفل على ذراعيها ، وكان شعرها الطويل مرسلا ومنسدلا على جسدها وعلى الطفل ؛ ولكن ما هذا ..؟! ان اللهب لينبعث من أناملها ومن كل شعرة فى جسدها ، لقد كان وجهها مضيئا كقرص الشمس فى الظهيرة ، وكانت عيناها تلتمعان كالنجوم فى السماء ..

وكان الطفل يضحك ويصيح مرحا ، وكان اللهب يحدث فرقعة وأزيزا رهيبين ، وايزيس تغســل الطفل العارى فى ألسنته الحمراء ، ومن بين هذه الأصوات ارتفع صوت ايزيس وهى ترتل أنشودة بلسان لم تفهمه الملكة ...

وظلت الملكة صامتة فى جزع مدة قصيرة ، ثم صرخت صرخــة رعب ، واندفعت من مخبئها ولكنها قبل أن تخطو خطـوات ثلاثا ، كان الظلام قد شمل الحجرة من جديد ، وخبت المشاعل الا مشعلا صغيرا ظل مضيئا الليل بطوله ، وظلت ايزيس واقفة وســط الحجرة والطفل نائم بين ذراعيها ...

وفى غمرة الذهول من هذا التغير المفاجىء ، لم تستطع عشتروت الا التحديق فى السيدة الغريبة التى استقرت عيناها بدورها على الملكة ، وأخذت تتحصها وتتعمقها وبعد وقت طويل ! سألتها الملكة فى صوت متحشرج من الخوف « من تكونين . ؟ » وومض البرق داخل الغرفة وثبت فوق رأس ايزيس وقتا قصيرا ، قبل أن يقطع ســماء الغــرفة ، ويتركهما فى ضوء خافت ...

وقالت ايزيس « أيتها المرأة المنكودة ، انك خفت على طفلك كما تخاف أى امرأة ، ولكنك أضعت عليه الخلود بخوفك هذا ، ففى هذا المساء كنت سأعبر به مرحــلة الفناء ، وأكرسه كأحــد الآلهة ولكن اندفاعك هذا ؛ أفسد ترتيلى وتعاويذى ؛ ولن أســتطيع بعــد الآن أن أجعله من الخالدين ، فخذيه ... لن يــكون الخلود من نصيبه ... وستحل به الشيخوخة ويذهب به الموت كالآخرين ... وهمست الملكة بعد ذلك مرة أخرى « من تكونين . ؟ »

وتوالت الومضات بعد ذلك ، واحدة بعد أخرى ، من النــور العبقرى ، فجعلت الغرفة أشد اشراقا منها فى النهار ، وكانت ألســنة اللهيب تمتد وتتراقص حول الوجه الغامض ، مما زاد فى رعب الملكة ، ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فبينما الملكة تحدق فى ايزيس بفزع وقد جحظت عيناها ، وابيض وجهها ، اذا بأشعة الضوء الحية تتجمع

وتهبط عـلى رأس ايزيس مكونة كرة من النار ؛ وانبعث منهـا أفاع ذوات عيون براقة ، تمتد رءوسها وتخرج ألسنتها ، كتلك الأفاعى التى تاج مصر ، واستحال شعر ايزيس النحاسى الى أجنحة من الحمرة البراقة ، والزرقة المشوبة بالذهب ، وكان وجهها رقيقا عطوفا كما هى دائما ، ولكن كانت تبدو عليه مسحة من النبل الهادىء ، الذى لا يرى الا على وجوه آولو ...

ولقد سمرت قدما عشتروت لهذا المنظر الرهيب ووقفت مفزعة بازائه ، وفى اللحظة التالية انفجرت العاصفة وأحدثت رجات عنيفة ، هزت القصر من أساسه ، وأطبقت الملكة ذراعيهـا على طفلها وأنت أنة والهة ، حوت كل ماتكن من لوعة ، وضمت الطفل الى قلبها ، وانطلقت من الغرفة لاتلوى على شىء ..

- ١١ -

جلست ايزيس الى النافذة المنخفضة تحملق فى أشجار السنط ، التى تمتد الى سيف البحر ، وكانت العاصفة التى هبت فى الليل الماضى قد انجلت ، ولكنها خلفت سحبا متناثرة هنا وهنـاك ، الى الشـمال والغرب ، وقد تجمع بعضها فى كسـف كبيرة قاتمة ؛ وكانت الشمس تطل من فرجة بين الغيوم ، وكانت أشجار السنط مغمورة فى حطـام العاصفة وبقاياها ، وكانت الأزاهير الجميلة ملقاة فى الوحل ، وقـد مزقتها الرياح السافيات ، ولكن ايزيس لم تلق بالا الى ذلك كله ، فان أفكارها كانت تدور حول أشياء أهم من ذلك ... ولم لاينتهى بحثها اليوم ... ؟ انها تعلم أن الملك سيبعث اليها رسولا ، وهى الآن تنتظره بفارغ الصبر ، وهى تفكر فى الأيام السعيدة المقبلة ..

ولم يكن مليكاندر كعادته ، فقد عاد من رحلته للصيد ، ليجـد أمامه قصصا خرافية تروى عن المربية الجـديدة ، ومما أقلق راحته أن رسالة وصلته فى منتصف الليل تقول ان الملكة منطوية على نفسها فى فزع شديد ، وتطلب وجوده الى جوارها ، فلما وصـل الى جـانب فراشها استطاعت فى أول الأمر أن تتكلم بسرعة عن ايزيس والبرق ، والأجنحة الذهبية والأفاعى اللامعة ، وعن الربات والنار ، وكثير مما لم يستطع مليكاندر أن يفهم منه شيئا ، واستطاع بعد كثير من الأسئلة أن يفهم أن المربية التى عالجت الطفل بنجاح ليست فى نظر الملكة ، الا احدى الربات ... ويجب أن تلقى التكريم اللائق بها ثم تمضى لحال سبيلها ...

ولو قد طلب من مليكاندر أن يكرم أميرا من جيرانه ، اذن لهان الأمر ، واذن لاستطاع أن يقوم بذلك على أكمل وجه ، فيخصص يوما لصيد التماسيح وأفراس البحر ، فضلا عن الحفلات الرائعة الضخمة ..

ولكن تكريم ربة فى ضيافته أمر لم يألفه من قبل ...

ولكنه كان أمرا لامفر منه ، وبعد أن ذرع الغرفة عـدة مرات ، قرع قطعة من المعدن معلقة على الحائط بشدة ، وقال للخادم الذى لبى النداء « أدع الوصيفة مليتا ... » ثم قال لنفسه « سأرى تلك السيدة الغريبة ، اذا كانت ستلبى طلبى ، ولعلى أستشف منها شيئا يهـدينى الى تصرف معقول ... » ولما جاءت مليتا طلب منها أن تستأذن له فى رؤية ايزيس ، اذا لم يكن لديها مانع من لقائه ...

وفى غمرة من الدهشة ، ومن عدم الفهم لما يحدث فى تلك الليلة من أحداث غريبة ، طرقت مليتا الباب فى خوف ، وبعد أن أذنت لهـا ايزيس فى الدخول ، دخلت الغرفة وهى تتعثر ، وتقدمت نحو النافذة حيث تجلس ايزيس ، وبعد أن سكن روعها قالت فى جهد : « ان الملك يود أن يعلم اذا كان فى استطاعته أن يراك .. ؟ » وقالت ايزيس بهدوء « نعم ... أنبئى الملك أننى سألقاه هنا ... »

وعندما دخل الملك الغرفة ركع ثم تناول اليد الممدودة اليه وقبلها فى خشوع ، وهكذا أدى ماعليه نحو الربة التى كانت ضيفته ..

وبدأ يقول فى أناة « ان الملكة ليست على مايرام ، فقد أرهقتها أحداث الليلة الماضية ولكنها طلبت الى أن أشكرك على عنايتك بطفلنا الصغير ، وان لسانى ليعجز عن التعبير عن امتنانى لما أظهرت من عطف بتشريفك لنا ، اننى لاأعلم من أنت ولكن قبل أن ترحلى ، أتوسـل اليك أن تقولى اذا كنت أستطيع أن أقدم لك أية خدمة ... »

وأجابت ايزيس ، وقـد أثرت فيها لهجة الملك ونبل طريقتـه ، وبساطة كلماته « مليكاندر انك ستعلم الكثير ، ولكنك لن تشير الى شىء مما تعلم ... ولكى تطمئن ، أقول لك ان الملكة سـتكون أحسن حالا ، أما عن ولدك الأمير ، فان اسمه ومجـده سيعمان فى المستقبل أرض بيبلوس جميعها ، وأما عن نفسى فان ساعة رحيلى قـد دنت ، ولكن قبل أن أمضى أطلب منك منة لاتنسى ... »

فقال الملك « اعتبرى طلباتك مجابة منذ الآن •• » فقالت ايزيس « الدعامة الموجودة فى البهو الكبير ••• اننى أطلبها منك ••• »

ولم يكن الملك يتوقع ذلك الطلب ، فان الدعامة قد كلفته كثيرا لاعدادها حتى وضعت فى مكانها ، ولكن تردده لم يكن لهذا السبب ، فليس لهذه الدعامة مثيل فى العالم ، والناس يأتون من بعيد ومن قريب ليشهدوا الرسوم المنقوشة على اللحاء ، ولم يطل تردده فقد أعطى كلمته وانتهى الأمر ••• ، ولو أن ايزيس طلبت قصره بما حوى فلن يرفض لها طلبا ••• ، وأجاب « انها سترفع من موضعها فى الحال » وعقبت ايزيس على اجابته « ان قيمتها لديك فى مظهرها الخارجى ولكننى أريد مابداخلها ، وهكذا قد تشبع رغباتنا كلينا ••• »

وانقضى ذلك النهار كله ، والعمال منهمكون فى رفع الدعامة الشجرية ، وفى الصباح التالى حضرت لتسلمها بحضور الملك والملكة ، ولكنهم حينما أرادوا نقل الدعامة الى القارب الذى صنع من أجلها ، طلبت منهم ايزيس أن ينتظروا ، وتناولت سكينا طويلا ، وسحبتها على الجذع ، حيث هو ملقى فسقط اللحاء ، وهنالك فى قلب الشجرة كان أعجب ماأبدعته يد صانع ، وأغرب ماوقعت عليه عين انسان ••• ان صندوق ست كان هناك •••!!

وطغت على ايزيس موجة من الانفعال لمدة وجيزة ، وغام المنظر أمام عينيها ولكنها تغلبت على ضعفها وتناولت قطعة من الكتان الأبيض النظيف ونشرتها ووضعت فيها قطع اللحاء ، ثم صبت عليها الزيت العطرى ، وكانت فى خلال ذلك تتلو كلاما غريبا غامضا ، ثم التفتت الى الملك قائلة : «ان هذه القشور المقدسة قدحفظت جسد اله ، فاحفظوها فى مكان يليق بها ، وهكذا تحتفظ بكنزك يامليكاندر ، وطالما أنت وشعبك تكرمونها ، فالاله راض عنكم ، وعن أرضكم ، فاسمع وتذكر •••

وأقيم احتفال جليل أثناء النهار نقلت فيه الشجرة الى معبد المدينة الكبير ، وأعيدت أجزاء الشجرة الى ما كانت عليه من قبل بأمر

الملك ، ثم رفعت فوق المذبح ، حيث ظلت بضع مئات من السنين ، موضع تكريمهم وتقديسهم لما أحاط بها من معجزات .

ورفع اثنا عشر من الحمالين الأشداء ؛ ذلك الصندوق المعدنى وحملوه الى القارب يتبعه الملك والملكة ، ورجال الحاشية الى الشاطىء وقد صحبوا الربة حتى تودع أرضهم ، وقد تجمع كذلك على الشاطىء جمع غفير من الناس .

وكان القارب مكسوا بنسيج وردى مذهب ، وكان شراعه الكبير من الحرير الأسود ، ونقل الصندوق بلطف ووضع فى مكانه من القارب ، بين مظاهر التقديس والتكريم ، ولما تم كل ذلك دارت ايزيس نحو الملكة التى كانت ممسكة بالأمير الصغير ، فتناولته بين ذراعيها ، وربتت بيدها على جبهته ثم قبلته قبلة طويلة مفعمة بالعاطفة وقالت لأمه فى بساطة ، وهى تعيده اليها « لقد أحببته كثيرا ••• » ثم خطت الى القارب ووقف عند نهاية الصندوق ، ونشر الشراع الأسود الكبير ، ونزعت سلاسل المرساة ، وانطلق القارب الملكى تدفعه أيد خفية •••

وهكذا انتهى بحث ايزيس •••!!

- ١٢ -

وصعد القارب على المجرى بين أعواد البردى ، تظلله أغصان الصفصاف المتدلية ، وأغصان اللبخ ذات الأذرع الهزيلة الكئيبة ، وقد امتدت فوق المياه ، وكانت ايزيس تقف فى مؤخرة القارب وعيناها مثبتتان على التابوت الراقد أمامها فى ظل الشراع الأسود الحزين ، وكأن الطبيعة كانت تشاركها أحزانها فتكاثفت السحب فى السماء داكنة لاحياة فيها ، وسكنت الحياة من حولها فلا صوت ولا حركة فقد هجرت الحياة تلك البقاع الخربة ، وحلت بها الوحدة الخرساء ، وزحمها الموت الرهيب ...

وصل القارب الملكى مع الغروب الى بقعة رملية من الشاطىء منحدرة الى النهر ، ورفعت ايزيس رأسها — لأول مرة منذ أبحر القارب — ونظرت الى السماء ، وباشارة من يدها اتجه القارب الى أجمة كثيفة من الغاب الطويل ، وقفزت ايزيس على الشاطىء ، وأدارت بصرها فيما حولها ، فلم تر شيئا سوى الرمال ومياه النهر الداكنة ، والسماء الملبدة بالغيوم ، وسوى نخلات ضاربات فى الجو على مبعدة ...

وعادت ايزيس الى القارب وفحصت التابوت ، ان طول مكثه فى الماء قد أتلف خشبه ، وجعل أربطته المعدنية تصدأ ، وأعملت آلة حادة فى الغطاء بحركة سريعة منفعلة ، وأدخلت يد مجداف فى الثغرة التى أحدثتها ، وضغطت عليها فتفككت الأربطة واحدا بعد الآخر ، وتحرك الغطاء الثقيل ... كانت ايزيس تعلم يقينا ماذا بداخل الصندوق ذلك أمر لايحتمل الشك .. ولكنها حين وقع بصرها على الوجه الحبيب ، وملامح أوزيريس التى لم تتغير عما عهدته قبل أن يفارقها آخر مرة ، لم تستطع أن تحبس تنهدة عميقة ندت عن صدرها ، ولاأن

تمسك الدموع التى انحدرت على خديها ، لقد انتصرت عواطف المرأة على وقار الربة ...

وأخذت تحدق فى وجهه طويلا ؛ وذكريات عمرها السعيد تزحم رأسها ، أمن الحق أنها لن تستطيع أن تنصت الى صوته الحبيب مرة أخرى ...؟ ألن تستطيع أن تنفرد به أبدا .. ؟ ربما يكون ذلك فى بلاط طيبة ، ولكن ... أبدا .. لا . لم يحن الوقت لتقال هذه الكلمة ...

وحملت الجثة فى رقة الى الشاطىء ، ومددتها على الرمال البيضاء ثم خلعت بعد ذلك رداءها وأرسلت شعرها المتموج ، فكساها بجلباب من الذهب الأحمر ، تحت أشعة الشمس الغاربة وانحنت ثلاثا فى خشوع لاله الشمس « رع » ثم جثت على الرمال بجانب جثة الملك الميت وذراعاها ممدودتان ، وقد اتجه وجهها الى الغرب .

وخالطت نسيم المساء أغنية باكية ، فى رقة ذلك المكان ، كانت ترتفع فى لطف ثم تنخفض فى لطف ، ثم تنساب فى عنف وعاطفة ، ثم تتلاشى فى حزن لانهائى ، ويتبع ذلك سكون حزين يقطعه صوت ايزيس وهى ترتل التعاويذ ، والكلمات السحرية التى تعلمتها فى العصور الخوالى ، وأخذت عيناها تغمضان فى بطء ، وهى مسترسلة فى الغناء ، وساد السكون ذلك المنظر مرة أخرى ، فلا نفس يتردد فى ذلك الجسد الذى كان يفيض حياة وشبابا ، ولا عضو يختلج من أعضائه ، وسكن النسيم ، ولاح كأنما المياه فى النهر قد توقفت عن الجريان ، وتلاشى حفيف الغصون وهمس أوراق الغاب ، وكأن ايزيس ميتة كالملك الراقد الى جوارها ، وكأن الطبيعة قد شاركتهما ذلك الموت ...

ولكن ماهذا ...؟؟ لقد انتفض من جوارها كائن حى آخر ، يحمله جناحان رقيقان ... وأخذ يحوم حول الجسدين الراقدين ثم استقر بجانب جسد أوزيريس ...

فهل كان ذلك الكائن هو ايزيس ...؟ يقينا فقد كان وجهه وجهها ... وكان قوامه فى رشاقة قوامها ، ولكن لا ... فهذا الوجه وجه ايزيس حقا ولكنه اكتسى عظمة وجلالا ، لايعرفهما أبناء هذه الدنيا ؟ وهذا الجسم جسمها ولكنه نورانى مقدس ... لقد انتصرت الربة بوقارها على عواطف المرأة ...

وحولت عينيها الى الجسد الملقى على الرمال ، وقد أفعمتا بلون من الشفقة والحب لاتعرفه عيون البشر ، ولاتستطيع عنه تعبيرا ولاحت على ذلك الوجه علائم قوة واعتزاز .. وارتفعت الربة بجناحيها وحلقت فوق أوزيريس ، وانطلق صوتها فى همهمة تشبه تلك التى كانت ترتل بها من قبل ، فكانت أشبه بهدير بحر بعيد ، وكانت ضربات جناحيها الرقيقين كتنهدات الأرواح فى الليل البهيم ...

ونظرت الى أعلى فرأت اله الشمس وقد استقر بقاربه على قمة تل بعيد ، قرصا فاخرا من الذهب ... ولقد حلت الساعة الفاصلة وعليها الآن أن تعلم مدى قوة ذلك العلم المقدس الذى أخذته عن رع فى العصور الخوالى ... لقد أفلحت رقاها وتراتيلها فى أن تشفى الكثيرين ولكنها لم تحاول قط أن ترجع شخصا من وراء الحياة الى هذه الدنيا ... ان غلطة واحدة ، أى خطأ فى الكلمات أو النغمات يخالف مارسمته الرقية ، كفيل بأن يذهب أدراج الرياح بكل الآلام والمتاعب التى حملتها صابرة طوال الشهور الماضية ...

ولم يدم ترددها الا لحظات معدودات ، ولم يلبث صوتها أن انطلق لا رعشة فيه ولاتقطع . ولم تختلج عضلة من عضلات وجهها رهبة من تلك اللحظة القادمة ، ورفعت يديها الى أعلى ، واتجهت بعينيها الى الغرب ، فانعكس فى أعماقهما قرص الشمس الغاربة ، وفى اللحظة التى غاب فيها قرص الشمس وراء التل ، منفلتا الى وادى توت ، صاحت ايزيس بأعلى صوتها مرددة اسم « رع » الخفى ... الاسم الذى تعلمته ايزيس وحدها دون الآلهة والناس ... الاسم الذى يحكم العالم .

وحدثت المعجزة فان القارب الذى ظل ملايين السنين يختفى خلف ذلك التل ، ظهر مرة أخرى على قمة التل وكان اله الشمس «رع» واقفا بنفسه فى القارب وقد حول وجهه نحو الجماعة الصغيرة على رمال الشاطىء ، وانتشر فى السماء لهب أحمر كئيب صبغ الأرض بالدماء ... ثم اختفى القارب الخالد وراكبه الرهيب ، وشملت الكون ظلمة ساكنة تتلسب وجمال الموقف ...

ولما تلألأت النجوم فى القبة الصافية ، وأرسل القمر أشعته الفضية على النهر ، كانت الربة المجنحة قد اختفت ، وبقى على الشاطىء مخلوقان يتنفسان بلطف على الرمال ، جنبا الى جنب ... وكانا يتحدثان فى رقة وحنان عن النصر الذى أحرزه الحب والخير على الشر والكراهية ...

- ١٣ -

ومر العامان التاليان على ايزيس وأوزيريس فى عزلتهما ، وهما جد سعيدين ، تغمرهما المسرة الدافقة ، كانا يسكنان كوخا صغيرا أقاماه من أغصان الشجر وأعواد الغاب ، وكان النهر يسخو عليهما بالأسماك والطيور ؛ فيطعمان هنيئاً مريئا ؛ واستصلح أوزيريس قطعة من الأرض بين الأشجار ، وزرعها قمحا فكانت تغل محصولا وفيرا ، ولما ولد طفلهما حورس ، كان كأس سعادتهما مترعا يكاد يفيض .

وكانا يجلسان فى المساء خارج الكوخ ، فيعكف أوزيريس على نايه ينفخ فيه ، وتصحبه ايزيس فى أغنية تنيم بها الطفل المستلقى فى حجرها ، أو يركبان زورقا فى نزهة نيلية ؛ حيث يدفع نسيم المساء شراعهما فى رقة وسكون ، وكثيرا ماكانا يتحدثان بهدوء عن المستقبل، وعن الانتقام من ست ليستخلصا منه ملكهما ، وكانا أثناء ذلك ينعمان برعاية حورس الصغير ، وهو يتعثر فى خطاه ويتقلب على الرمال .

ومن الحق أنها كانت حياة سعيدة ، حياة راحة ومرح ، وقد ولت سنوات الكفاح عن طيبة ، ولكنهما كانا يتوقان الى الرجوع اليها مرة أخرى ، ولم تكن رغبتهما تلك من أجل نفسيهما ... لا ... ولكن لأنهما أحبا تلك الأرض الطيبة ، وأحبا أهلها الذين يئنون تحت نير ذلك المارد القاسى ست ، الذى حالف الأثيوبيين البرابرة ، وحكم مصر بيدمن حديد ، وقد كان الجميع يكرهونه ويتوقون الى التخلص منه ، ولكن قبضته كانت قوية ، وكان بطشه شديدا ...

كانت ايزيس وكان أوزيريس يتحدثان فى ذلك الأمر ، وقلباهما يتمزقان من أجل شعبهما ، وما يلقى من أذى واذلال ، وكأنما يدبران لانقاذه لا بأيديهما ، ولكن عندما يشب ذلك الطفل المرح الذى يتعثر

على الرمال ، ويبلغ مبلغ الرجال عندئذستكون ساعةالانتقام ، والاخذ بالثأر ....

وهكذا مرت الأيام فالشهور ، وحالت الشهور الى سنوات ، والطفل ينمو وتظهر قوته ، وكان كثيرا مايتسلى بصيد الأسماك من النهر بحربة صنعها له أبوه ، أو ينصب بمهارة شبكا لاصطياد البط البرى الذى يتخلل الغابة وقد لقنه أبوه استعمال الحراب والهراوات الثقيلة منذ الصغر ، كان حورس فخورا بمقدرته فى هذه الفنون ، فخورا باعجاب أمه بمهارته ؛ لقد كان يدير الهراوة حول رأسه حتىتصبح فى سرعة البرق ، كان يرمى بالحربة قدما فتصيب قلب الهدف ، لقد كان محاربا حقا ...

ولكن قطرة مرة ، كانت تفسد على ايزيس كأس سعادتها ، فقد كان أوزيريس يخرج فى رحلات طويلة للصيد ، محتجا بالحاجة الى مؤنة جديدة ، وكان يتغيب فى رحلاته هذه يومين أو ثلاثة ، تقضيها ايزيس فى انشغال وقلق ، حتى تسمع صوته المرح يصافح أذنيها عبر المستنقع ، وعندئذ تتناول الصبى بين ذراعيها وتسرع للترحيب بمقدم ذلك الرحالة ، والهدوء والفرح يشعان من مقلتيها ...

ولم يوفق أوزيريس ذات مرة فى العودة فى الليلة التالية كعادته، وهى أطول مدة قضاها بعيدا عن زوجه ايزيس وولده حورس ، وارتفع البدر ولم يحضر أوزيريس ، فسارت الى النهر وجعلت تبحث عنه على الضفة ، ولكنها لم تقع له على أثر ...

ومرت أمام ناظريها صورته وهو ميت مسجى فى ذلك التابوت وذكرت تلك الليلة التى واجهت فيها الوحشة والخراب منذ أمد بعيد، فأخذت تروح وتجىء على الشاطىء ، لاتستقر ولاتثبت ، وهىتتوسل الى رع ، ألا يأخذ منها أوزيريس مرة أخرى ، وتناهى الى سمعها مع أشعة الفجر الأولى نداء جعلها تطير عبر الأرض الفضاء لتلقىأوزيريس الحبيب بعد لحظات قصار ..

كان أوزيريس يطارد غزالا ، فاضطر أن يتبعه وقتا أكثر مما

قدر ، ولكنه ظل يواصل الرحيل طول الليل فى ضوء القمر ، لعلمه أن ايزيس ستظل قلقة حتى يعود ، وحرص بعد ذلك ألا يغيب أكثر من يوم فى رحلاته هذه ، وقد طمأن ذلك المسلك ايزيس ، وأدخل المسرة على قلبها .

وبعد شهور من تلك الليلة ، خرج فى رحلته المعهودة ، وانقضى يومان دون أن يعود ، ومر ثالث دون أن تسمع زوجته الكسيرة نداءه المألوف ، وزحفت الأيام فى بطء مرير ، ولم يعد أوزيريس .. وعندئذ أدركت ايزيس أنه لن يعود ، وأنها لن تراه ثانية ، فقد ظفر به أعداؤه مرة أخرى ، ولن تشرق الشمس من أجلها بعد اليوم ...!!

وجلست فى الكوخ تحملق بعيون جامدة فى الفضاء والرمال والمياه ، دون أن ترى منها شيئا ، ومرت الساعات وليس هناك مايدل على أن جسدها ينبض بالحياة ، وأقبل اليها حورس الصغير فلما أخفق فى اجتذاب نظرها ، رقد فى حجرها فى سكون ، أما ايزيس فقد كانت ميتة بالنسبة لهذا العالم الأرضى ، لأنها كانت تعيش فى الماضى وذكرياته البيض .

وأوشك قارب رع أن يتم رحلته اليومية حينما أفاقت ايزيس من غيبوبتها ، بعد أن ندت عن صدرها تنهدة مرتعشة ، وانحدرت الى الخليج حيث أودعت القارب الذى استقلته فى رحلتها من بيبلوس ، وكان ملقى بين الغاب بعيدا عن الأنظار ، وأوشكت أن تخطو اليه عندما رأت أنه مشغول ، وتراجعت بقفزة صغيرة الى الوراء ، تحولت فيما بعد الى صيحة فزع ورعب .. !!

ورفع الشخص الذى يشغل القارب رأسه ، فلاحت ملامح ست الشريرة ، التى يتميز بها جبينه الممسوخ ، وقال فى خبث :

ـ هل أفزعتك أيتها الأخت الجميلة .؟ لقد أفزعتك حقا .؟ ولكن صدقينى أننى لم أكن أقصد ذلك ، وكنت سأحضر لرؤيتك عندما أعد القارب للرحيل ، فاننى سأصحبك فى رحلة ...؟!

ونظرت اليه ايزيس بعينين جامدتين ، زاد الرعب فى اتساعهما ، ولم تجبه بكلمة واحدة .. واندفعت الى ذاكرتها فظائع ذلك المارد ، ولقد أدركت الآن لماذا تأخر زوجها عن العودة ...؟

وقال الشرير حين لم يظفر بجواب :

ـ يظهر أن رؤيتى لم تسرك ...؟ والواقع أنه ليس من الأخوة فى شىء أن ترحبى بمقدمى على هذا النحو ...

وقالت ايزيس وقد جعلتها سخريته تيأس فتسير فى هدوء وهى تركز نظرها فى وجهه :

ـ لقد قتلته اذن ....؟؟

ـ نعم لقد قتلته ...

قالها ست وهو يتراجع أمام تلك النظرة المملوءة بالكبرياء ، وقد اعتراه الخوف :

ـ يالوحش .... يالنذل القاسى ... ألم تكن تستطيع أن تتركنا وحيدين هنا .. ؟ ألم تكن تستطيع ـ والملك فى يديك ـ أن ترد الينا سعادتنا فى هذا المكان .. ؟ وهل لايزال قلبك الشرير ينطوى على شىء جديد .. ؟

ـ نعم ينطوى عليك أنت ... اننى سأتزوجك وأجعل منك ملكة مرة أخرى ؛ فهل تقبلين التاج الذى أقدمه اليك ...؟

وقالت ايزيس متجاهلة سؤاله :

ـ وأين أوزيريس ....؟

ـ حيث لن تجديه أبدا ... ولن يمكنك رده الى الحياة مرة أخرى بالرقى والتراتيل ؛ لقد فاجأته وهو يصطاد وذبحته .. ولكى أطمئن على النهاية التى رسمتها له ، مزقت جسمه اربا اربا ، وبعثرته فى طول مصر وعرضها .... هل تكفيك تلك الاجابة ...؟

ولم تصرخ ايزيس ؛ ولكن انحنت على زوجها ؛ وألقت نظرة كلها استمرار وقالت :

ـ أيها الخبيث الخائن ... ان يوم الحساب سيحل قريبا ؛ وستلقى جزاء ما أنزلته يداك ...

وتحولت ايزيس تريد الهرب الى الكوخ ، ولكن ست زمجر وهو يسد بينهما .

ـ انتظري ... لن تروحي مني هكذا ... لقد عرضت عليك الزواج وستحين طلبي هنا ...

وتحولت اليه ايزيس وفي عينيها غضب جعل يديه تسقطان الى جانبه ؛ وقالت بصوت يرتعد غضبا :

ـ اسمعني مرة أخرى ؛ وعندها ستعلم شيئا عن قوة ايزيس .. انك أنت وعروشك جميعا لا قيمة لكم عندي وسأرفضها وأرفضك كما أرفض كل شيء كريه ..

وصر ست على أسنانه في غضب وصاح :

أنا أيضا اله .. ولن تفلح معي ضروب سحرك .. وسترحلين معي منذ الغد سواء أحببت ذلك أم كرهته ؛ وسأودعك مكانا أمينا ، ولعل قلبك المتحجر أن يلين يوما ما ...

قال ذلك وضحك ضحكة ذات مغزى ..

وبدءوا رحلتهم في اليوم التالي صاعدين في النهر ، يحرسهم خمسون من أخطر رجال ست وأشدهم بطشا ؛ ووصلوا مع الغروب الى حصن كبير ، حيث ألقت السفينة مراسيها ، وقاد ست ايزيس وصغيرها حورس خلال البوابات التي أغلقت خلفهم ؛ محدثة صوتا أجوف ؛ شبهته ايزيس بإغلاق المقبرة ....

وقابلا في الردهة خادما عجوزا وزوجه ؛ وقد أفردا لخدمتهما ؛ وأصدر ست أوامره القاطعة بأن تعامل ايزيس وصغيرها حورس ؛ بما يليق بهما من تكريم واحترام ، على ألا يغادرا منزلهما خلال الليل أو النهار ، ثم استدار الى ايزيس وعلى شفتيه الغليظتين ابتسامة سخرية كريهة ؛ ولكنه لم يفه بكلمة أخرى ؛ وعاد الى رفاقه ....

- ١٤ -

ومرت الأيام بطيئة متثاقلة وايزيس وولدها حورس معتقلان في السجن ؛ لا يسعى أحد لانقاذهما ؛ وكان ست يداوم على زيارتهما كل يوم ؛ فقد ظن في نفسه القدرة على الوصول الى مآربه بالوعود الخلابة والتلويح بالحرية والقوة والسلطان في المستقبل ؛ ولكن ايزيس أعطت أذنيها دون الوعد والوعيد ؛ وانقطعت تلك الزيارات فاطمأنت ايزيس بعض الشيء ؛ الا ان قلبها كان مفعما بالشك والخوف ؛ فهي تعلم أن سجانها لن يرجع عن عزمه ؛ وأن غيابه ينم عن أمور يدبرها ضدها ؛ تتسم كلها بالنذالة والجبن .

وكم توسلت ايزيس لرع أن يعينها ؛ وأن يأخذ بيدها ؛ ولكنه لم يستجيب لتوسلاتها ؛ وكان حارس الباب زائرها الوحيد ؛ الذي يحضر لها الطعام ؛ وزوجه التي كانت تعرض خدماتها بين الحين والحين ؛ وقد أسرت ايزيس قلب العجوز وزوجه ؛ برقتها وعطفها ؛ حتى أنهما كانا يفكران في مساعدتها على الفرار ؛ ولكن أنى لهما هذا وست قد ألقى رقبة ؛ وأعمل فنون سحره في الحصن وفيهما ؛ حتى أصبحا لا يدريان طريقا للدخول أو الخروج ... !!

وذات مساء بينما ايزيس تداعب طفلها قبل أن ينام ؛ ظهر أمامها رجل غريب ؛ طويل القامة ؛ صارم الوجه ؛ ظنته ايزيس أحد أعوان عدوها ؛ فدفعت حورس وراءها لتحميه ؛ ثم واجهت القادم في تعال وثقة وأنفة .

– من تكون .... ؟ وعم تبحث هنا ...؟

– لا تجزعي يا ايزيس ؛ فقد جئت لأعينك لا لأوذيك ؛ ولو قد جئت كما أظهر في السموات اذن لعرفتني جيدا ... أنا توت وقد

أرسلني رع الى هنا لأعينك على الفرار من قبضة الغدر ولأساعد في بعث أوزوريس .

وشد ما فرحت ايزيس بهذا القادم الجديد ؛ فانه توت اله المعرفة ؛ وأكثر الآلهة حكمة ؛ وفي يده مفتاح المعرفة ولن يستطيع أن يقف في وجهه أحد ؛ وأوشكت ايزيس عندما أشار توت الى اسم زوجها ؛ أن تصب عليه سيلا من الأسئلة ؛ ولكنه ردها في لطف قائلا :

– ليس هذا وقت الكلام .... اذا كنت تريدين انقاذ حياتك وحياة ولدك أوزوريس ؛ فأعدى نفسك للرحيل ؛ ولكي يطمئن قلبك أزيد على ما قلت ؛ أن اليوم الذي ستجدين فيه جسد أوزوريس آت لا ريب فيه ؛ وسيعود الى الحياة ؛ وسيحكم مملكة أكبر بكثير مما حلمتما به .

وقد تحقق ماقاله توت ؛ فان أوزوريس أصبح فيما بعد قاضيا في دار الموتى ؛ ولكن ايزيس لم تفهم ما عناه توت بكلماته ؛ ولم تفكر في مملكة سوى مصر ؛ ولهذا قابلت كلمات الاله باندهاش بالغ ولكنها اطمأنت واستراح بالها ؛ حينما علمت أنها ستلقى زوجها وتسعد معه مرة أخرى ؛ والتقطت ايزيس طفلها وتبعت توت ...

وسار توت تتبعه ايزيس وطفلها حورس ؛ في طريق كثيرالمنحنيات ؛ ومروا خلال الأبواب التي فتحت مغاليقها لمسة من يد الاله الزاخرة بالقوة ؛ واندفعوا في سراديب مظلمة ؛ كانت تنيرها أضواء غريبة عند مرورهم بها ؛ حتى وصلوا الى السهل الخلاء ؛ مخلفين وراءهم جدران السجن .

وقال توت : سأتركم هنا في رعاية خدامي ؛ وخدام رع القوى ؛ فاتبعوهم حتى تصلوا الى مدينة بعيدة الى الجنوب سيدلونكم عليها ؛ فانتظروا هناك والى اللقاء ..

وقبل أن تتمكن ايزيس من شكر اله المعرفة توت كان قد اختفى خلف ايزيس وحورس وحيدين .

ولكن أين الخدام الذين تحدث عنهم توت ؛ لقد نظرت ايزيس

حواليها ؛ ولكنها لم تر أحدا على مدى نظرها ، وربما يسفرو هـؤلاء الخدام بعض الوقت حتى يحضروا ، ولكن رجال ست قد يكتشفون فرارها ؛ فماذا تصنع . ؟ هل تنتظر مكانها أم تختبىء فى البردى حتى يصل خدام رع . ؟

وسمعت صوتا ينبعث من تحت أقدامها يقول : « حينما تكون السيدة ايزيس على استعداد فأننا سنرحل ، ونظرت ايزيس لأسفل فأبصرت عقربا ضخما ؛ وآخر ، وآخر وآخر .. حتى عدت سبعا فهل هؤلاء خدام توت ..؟ ولو كانت امرأة أخرى محل ايزيس ، اذن لملأت الجو صراخا ، ولاذت بأذيال الفرار ، رعبا من هذه المخلوقات المميتة ؛ ولكنها كانت تعلم يقينا أن الاله يستخدم فى مآربه أشد الوسائل تنفيرا ..

وسألت ايزيس لم تجمعتم هنا .؟

فقال أكبر العقارب : أنا تفن وقد جئت لأتبع السيدة ايزيس وولدها حورس ؛ ولأقيهما من كل أذى .

ـ وأنا بفن ، وسأمضى مع أخى تفن لأراقب المؤخرة .

ـ وأنا مستف ، وسأسير على يمين السيدة ايزيس .

ـ وأنا مستتف ، وسأراقب يسارها .

ـ ونحن بتت ، وتت ، وماستت ، وقد أرسل بنا رع لنقود السيدة ايزيس الى مدينة الجنوب .

ولما انتهوا جميعا من كلامهم قالت ايزيس : حسنا .. ولوا وجوهكم شطر الارض حتى تدلونى على الطريق ...

وهكذا انطلقت القافلة العجيبة ؛ وظلت ايزيس تواصل الرحيل عدة أيام ، والشمس ينعكس ضوؤها على الرمال ، ويرتد لامعا ، حتى كلت عيناها ، وكانت تلح عليها دائما فكرة اكتشاف ست لفرارها ؛ واحتمال مطاردته لها . وكان مجرد التفكير فى ذلك الأمر يجعلها تحث أدلاءها

على الجد فى الرحيل ، وكانت لاتصبر حتى على مجرد التوقف للراحة . ولكن تلك العقارب السبعة ، والقوى المقدسة تسيرها ، كانت لا تملك أن تسرع وهى تسير بتوجيه من رع ، ولابد أن يكون توجيهه خيرا .

ووصلوا ذات يوم الى مدينة تب ، فقالت العقارب لايزيس :

ـ انه يجب عليها أن تقيم فى هذه المدينة حتى يقضى رع أمره .

- ١٥ -

ولما وصلت ايزيس مدينة تب ذهبت الى دار الأمير ، لعلها تجد لها مأوى ، ولكن امرأة الامير وقد رأت العقارب السبعة فى صحبتها ، تملكها غضب أهوج ، ولم ترفض طلبها فحسب ، ولكنها حذرت الخادمات والجوارى بالدار من أن تؤويها احداهن ؛ أو تسمح لها بالدخول ؛ وهكذا وجدت ايزيس نفسها مضطرة للبحث عن مأوى آخر ؛ فعادت الى الطريق الرئيسى الذى يؤدى الى المستنقع ، حيث جلست لتستريح ...

ومرت بها احدى الفلاحات الفقيرات ، فرأتها مكدودة تحدق بقلق فى جذع احدى الأشجار وكأنما أدركت تلك الفلاحة الفقيرة أن ايزيس ليست بالمرأة العادية ، فدعتها الى منزلها قائلة « ياسيدتى ان الاجهاد يبدو عليك فتعالى معى وسأحمل عنك الطفل ... ان منزلى فقير وليس لدى ما أقدمه الا القليل ، ولكنى سأقدمه لك كما هو ، فليس الفقر بعار ...!!»

وحملت الطفل دون ان تنتظر ردا على كلامها ، فقد كانت تعـرف الرد مقدما ، وسارت الى كوخ أقيم من الغاب على حافة المستنقع ، وهناك وضعت أمام ايزيس وعاء به لبن وبعض الخبز والفاكهة ، وأخذت تطعم حورس من وعاء آخر بينما ايزيس تتناول طعامها ....

واستطاعت الفلاحة ببعض الاسئلة الماهرة أن تدرك نوع المعـاملة التى لقيتها ايزيس من امرأة الأمير فقالت « انها امرأة شرسة حقا ... فيها برود وفيها أنانية ... انها تفكر فى نفسها فحسب ، ولا تمد يد المعونة لأحد طالما هى تستطيع ذلك ... ألا فليتولها رع برحمته ... »

وسمعت امرأة الأمير بما كان من الفلاحة الفقيرة ، فاستشاطت غضبا ؛ وانطلقت الى الكوخ ناقمة ثائرة فلما وصلت الى حافة المستنقع ؛ صاحت بصاحبة الكوخ :

كيف تجرئين على ايواء المرأة التى طردتها من دارى .. ؟! لو كان الأمير هنا لانهالت السياط على جسدك القذر .. جزاء هذه الجـرأة الوقحة ...

ـ ان السيدة كانت متعبة ، ولم أفعل أكثر من تقديم الطعام والشراب لها ولصغيرها ، وقد عرضت عليها أن تستريح قليلا فى كوخى ، وهـل كنت أستطيع أن أفعل أقل من ذلك ... ؟

ـ هل تستطيعين أن تفعلى أقل من ذلك ..؟ أتسألينني هذا السؤال ؟ ألم أطردها من أجل عقاربها الخبيثة؛ هل توبخيننى باظهار العطف عليها..؟ أخرجى من هذا الكوخ حالا... ولو طلع عليك الغد وأنت فيه فستجلدين ويزج بك فى السجن ..

ولما انصرفت امرأة الأمير انفجرت المرأة الفقيرة فى بكاء حار ، وقالت وريقها يكاد يغص بدموعها والنشيج يتخلل كلماتها الحزينة ان كل ما أحببته فى حياتى مرتبط بهذا الكوخ ... والآن ستطردنى منه قسوة هذه المرأة .. آه .. من هذه المرأة القاسية .. وسألتها ايزيس :

ـ وهل زوجها الأمير قاس هو الآخر .. ؟

لا ... ولكنه يخشى حدة لسانها فيفعل ماتأمره به ، ولو استمع لتوسلاتى فلن تتركه فى سلام ...

ـ كفى بكاء ياأختاه .. انك لاتعلمين من أنا ولكننى أستطيع أن أعينك ولن تخرجى من كوخك هذا أبدا ...

ـ ولاحظت العقارب السبعة ما لحق بايزيس ـ وديعتهم المقدسة ـ من اهانة ؛ فأجمعت رأيها على الاخذ بالثأر ، واتفقت فيما بينها على أحسن الطرق لتنفيذ غرضها ، واجتمعت بقية العقارب على تفن وأفرغت سمها كله على ذنبه ، وتسلل تفن الى دار الأمير ، ودب بين الحصر التى تغطى الأرض حتى وصل الى مهد يرقد فيه ابنه الصغير ، ثم لدغه مفرغا فيه سم العقارب السبعة ....

وصرخ الطفل صرخات عالية أفزعت أمه وجمعا من الخدم ، فأسرعوا لنجدته ولكن هيهات •• فلم يكن فى مقدور بشر أن ينقذه ، فالسم الذى سرى فى جسده كان قويا لدرجة لا يفيد معها علاج ••••

وبعد لحظات قصار فقد الطفل وعيه ، وزاد من عظم المصيبة ، أن احدى النسوة ــ فى فزعها ــ قلبت سراجا مشتعلا فشبت النار فى الأثاث وسرى الحريق فى الدار ..

وبينما الخدم يكافحون النيران ، ويحاولون حصرها ، كانت الأم الثكلى تذرع طرقات البلدة وهى تندب ولدها فى أنين مفجع ، وصرخات مؤلمة ولكن أحدا لم يلب نداءها ، فان أنانيتها وجفاف طباعها ، قد نفرا الناس منها ، فظلت وحيدة تحس الفجيعة ، ولكن امرأة واحدة رقت لها •••!! فان الغريبة التى طردتها من دارها كانت أما ، وكان لها طفل ، فتحركت فيها عاطفة الأمومة ، ورق قلبها لهذه الأم الثكلى ، وللطفل الذى عانى دون ذنب جناه ، فلما مرت بها امرأة الأمير نادتها •••

ــ تعالى ياسيدتى فان كلماتى تقى من الشر ، وتمنح الحياة ••• اننى أستطيع أن أشفى ولدك بالكلمات التى علمنيها أبى ، فاذا شئت فأحضريه الى وسأتولى أمره •••

وفكرت المرأة فى أول الامر أن ترفض مكرمة المرأة التى عاملتها فى قسوة ونذالة ، فانطلقت فى طريقها ، ولكنها حين لم يهتم احد بأمرها ، أضحت مشوقة لاختبار قوة المرأة الغريبة الطريدة ، وحملت طفلها آخر الأمر ، ومضت به الى الكوخ ، وسحبته على الأرض أمام ايزيس •

ووضعت ايزيس يديها على رأس الطفل الميت ، وصاحت «ياسم تفن أخرج وسل على الارض ، لا تبق فى الطفل ، ولا تقض عليه ، ياسم بفن أخرج ، لأننى أنا ايزيس الربة ••• أنا التى أعلم كلمات القوة وأعلم كيف أستخدمها •••!! ان كلماتى لقوية ••• ياجميع

السموم التى فى جسده ، اصغى وافعلى ما آمرك به ، ياسم مستت وماستتف لا تؤذه ، يا سموم بتت وتت وماستت اذهبى عنه ••

وتلت الكلمات السحرية التى تعلمتها من توت والتى لا يعلمها أحد سواها ••• وهبطت الظلال ، وسمع همس نسيم المساء الرطيب بين الغاب ، ولم يتحرك الطفل ولما لامس قرص الشمس قمم التلال ، هبت ايزيس ومدت ذراعيها نحو الشمس الغاربة قائلة « الطفل يحيا والسم يموت •• الشمس تحيا وقوى الشر تموت •• » ونظرت النسوة المجتمعات الى الطفل فرأينه يتنفس بلطف •••!! وقالت ايزيس وهى تتحول الى داخل الكوخ « خذيه ••• »

ونجح الرجال فى الوقت نفسه فى اطفاء الحريق ، وأنقذت الدار من خراب محقق ••• لقد تقبلت الآلهة ابتهال ايزيس من أجل المرأة ••••

وسمعت طرقة لطيفة على باب الكوخ خلال الليل المظلم ، ودخلت امرأة الامير بعد أن فتحت الفلاحة الفقيرة باب الكوخ وتقدمت المرأة من ايزيس وجلست عند أقدامها ، وقالت فى تلعثم « لقد أغلقت بابى فى وجهك هذا الصباح ، فقد خشيت على ولدى من عقاربك ، وغضبت لأنك تصحبينها ، ولذلك رددتك ، وقد لقيت جزائى على ذلك ••• وأنا الآن أرجو عفوك عن فظاظتى فهل تصفحين ••؟

ــ ليس هناك ما يستحق الصفح ، فقد فعلت ما تعتقدينه الصواب ، يدفعك الى ذلك حبك لطفلك ، واعلمى أن اللين والحب يفيدانك أكثر من القسوة والكراهية •••

ــ وهل أستطيع أن أفعل لك شيئا أكفر به عن قسوتى •••؟

ــ هناك شىء واحد •• هو هذه المرأة الفقيرة ، فقد هددتها بالطرد من الكوخ الذى ارتبط بقلبها وذكرياتها ••• اسحبى كلماتك المتسرعة ، وامنحيها الكوخ مدى الحياة تأكيدا لاخلاصك ،

واعلنى النبأ فى القرية منذ الغد ، حتى يعلم الناس أنك خيرة طيبة القلب ...

وترددت امرأة الامير فى بداية الأمر فى اجابة هذا الطلب ، والواقع أنها كانت تريد اصلاح موقفها من السيدة الغريبة القوية ولكنه لم يقع فى حسابها أن تظهر عطفها على المرأة المسكينة بعد أن ثارت عليها فى الصباح ، وبعد اعمال الفكر والتروية ، وجدت أن ثلاثتهن ايزيس وهى والمرأة الفقيرة ، هن اللواتى شهدن الحادث ووجدت أنها تستطيع أن تمسك لسان المرأة فقالت :

ــ اذا كانت ستنسى ماحدث وتغضى عما تفوهت به هذا الصباح، فاننى لن أفكر فى ايذائها ، ولكننى أشعر نحوها بالامتنان لأنها صادقتك ، وغدا سأنفذ مشيئتك ، وأعلن أن هذا الكوخ لها مدى الحياة .

ــ اتفقنا اذن ، ولن تذكر هذه المرأة شيئا عما حدث ، وستذكرك بالخير دائما ...

وانصرفت امرأة الامير الى دارها ، ولم تكد تغادر الكوخ حتى جثت المرأة المسكينة أمام ايزيس وانهمر من شفتيها فيض من الشكر لهذه السيدة صانعة المعجزات ...

بعد هذه الأحداث فكرت ايزيس فى الرحيل من تب ، فقد ذاعت أعمالها فى طول البلاد وعرضها ، فخشيت أن تصل هذه الأنباء الى مسامع ست فيقع المحذور ...؟!

ونادت اليها العقارب السبعة فلما أقبلت قالت لها ؟ أديرى وجوهك الى الارض وأرشدينى الى مستنقعات « خبت » ومخابئها فلما سمعت العقارب ذلك أدارت وجوهها الى الأرض ، واتجهت الى الشمال نحو الدلتا ، وانطلقت مرة أخرى ...

وأرض خبت هذه التى تحدثت عنها ايزيس جزيرة مسحورة نائمة

على صدر النيل العريض قرب بلدة بوزيريس ، وفى استطاعة من يعرف سر هذه الجزيرة أن يحركها من أساسها ، فتطفو على النهر اذا أراد ... ولكن السر كان معلوما لقليلين ، هم ايزيس وأختها نفتس ، وصديقة لهما تقطن تلك الجزيرة ، وتقوم على رعاية ممتلكاتها السحرية .

وهكذا مضت ايزيس على الطريق الصعبة الطويلة ، بمعونة حلفائها المخلصين العقارب السبعة ، حتى وصلت الى أرض آم حيث احتفى بها الناس كربة من الربات ، فأقامت فترة من الزمان بعد الحاح مستمر ، ولما كانت أرض آم قريبة من خبت ، فقد شكرت ايزيس العقارب السبعة ، ثم أذنت لها فى الرحيل .

وأقامت ايزيس فى أرض آم فى سعادة واطمئنان ، فليس هناك عدو قاس يزعجها ، ولا خوف هناك من اختطاف صغيرها الحبيب وقد حصنته بالرقى والتعاويذ ، التى أخذتها عن رع فى العصور الخاليات ، فهو الآن آمن من ست وخدمه وأتباعه ، وهكذا أخذت ورود الحياة تتفتح أمامها ، وأخذت تجد فى رعاية ولدها وهو يدرج نحو الرجولة عزاء عن أحزان الماضى ...

وكانت ايزيس تخرج كل يوم تلتمس الطعام لها ولوليدها وكانت تترك حورس فى رعاية أصدقائها ، وكم ألح عليها هؤلاء الاصدقاء أن تريح نفسها من هذا العناء ، وأن تأخذ ما تحتاج اليه من طعام من طعامهم ، فقد كانوا يرون ذلك تكريما لهم ، ولكنها كانت تأبى ذلك على الجميع ، فقد كانت بخروجها تتنسم أخبار عدوها ست وكم كانت تسر حينما تعود فى المساء الرطب ، فيسرع حورس الصغير فى مرح على الدرب المترب ليستقبلها ، وكم كانت تضحك عندما يحاول فى براءة الطفولة أن يستعمل الرمح والهراوة والقوس ، وكانت تسميه أوزيريسها الجديد ، الذى سيثأر لها من عدوهم جميعا ...

ولا يستطيع قلم أن يصف حنان الأمومة الذى كانت ايزيس

تظهره ، عندما تضم صغيرها الى صدرها فى المساء وهى تغنى له أغنية ينام على رجعها ؛ لقد كان كل ماتملك فى الحياة ، وقد عاشت من أجله ومن أجل ماسيقوم به من أعمال ، فوقفت على ذلك كل تفكيرها وحبها ...

ولكن ايزيس رغم عنايتها تلك قد نسيت أمرا واحدا ، وفجأة ذبلت الورود التى تفتحت تحت لمسة الموت الباردة ، وأصبحت الارض عارية خلاء ... ففى احدى الأمسيات لم يخف حورس للقائها كما تعودت ، فأسرعت الى الدار وقد غمرها احساس قاتم بارد كالموت ، وهناك كان الطفل مسجى على الارض وقد انتفخ جسمه وتورم ، حتى لا يستطاع تبين ملامحه ، وقد تصلبت عضلات وجهه ، وتوترت أطرافه ، فقد كان الطفل ذو الشعر المجعد ميتا ... لقد حصنته من شر ست وأتباعه ، ولكنها لم تقم وزنا لأشد الحشرات خطرا على الارض وهكذا لدغته فى غيبتها عقرب شريرة وهاهو مسجى بين يديها وكأنه لم يكن شيئا ...

وتفصيل ماحدث أن اعادتها لابن الامير الى الحياة فى تب أثار أحد العقارب من أتباع توت ، فذهب الى ست ونقل اليه الخبر ولكن ست الشرير لم يستطع أن ينال من ايزيس ، وقد دل سحرها على أنها أقوى منه بكثير ولكنه قوم سم العقرب بطريقة سحرية ، وأمره أن يعود الى أرض آم وأن يلدغ حورس وكان الشرير يعلم أنه يؤذى ايزيس بالقضاء على ولدها أكثر من أى شىء آخر ...

وتجمع جيرانها حينما سرى بينهم النبأ المفجع ، فأسرعوا الى الدار وجلسوا حولها يبكون لفداحة المصاب ، ولم يفه أحدهم بكلمة ، فان الكلام فى بعض الاحيان يعتبر اجتراء على قداسة الحزن .

وهكذا التفوا حولها فى حزن صامت ، وقد حاولت احدى النسوة المشتهرات بالحكمة فى الجيرة أن تشفى حورس ، ولكنه ظل كما هو لا حراك به ، وأخذت ايزيس تندب ولدها بصوت مرتفع

والدموع تنهمر على خديها ، ولكن ذلك كله لم يكن مجديا فان الندب والعويل كل ذلك لايستطيع أن يعيد الحياة الى الطفل .

وبينما ايزيس فى حزنها المرير تقلب النظر هنا وهناك ذاهلة ، مرت بها أختها نفتس وفى صحبتها ربة العقارب سركت فسألتها نفتس:

ــ ماذا جرى يا ايزيس ؟ ولماذا تبكين فى مرارة ...؟

ــ واحزناه ... لقد مات ولدى ... لقد أخذ منى حورس الجميل ...

ــ مات ؟؟ ... مات ... ؟ وكيف مات ... ؟ ؟

وارتجف صوت نفتس للفجيعة ، واندفقت من عينيها دموع حرار ، فقد كان الطفل حبيبا اليها وأجابت ايزيس سؤالها :

ــ هذا المساء عندما عدت الى الدار ... أنظرى .. انه ملقى على الارض ميتا ... لقد لدغه عقرب أرسل به ست الشرير ... لقد اغتصبوا كنزى وأخذوا حبيبى منى ...

والتفتت نفتس الى ربة العقارب وقالت لها :

ــ سركت ... ان لك عملا هنا ...

ــ لا ... لقد فات الوقت الذى كنت أستطيع فيه استخدام قوتى ، لو أن ايزيس طلبت عونى من قبل اذن لمنعت العقرب من لدغه ، ولكننى لاسلطان لى على الحياة والموت ، ان ذلك عمل رع القوى .

ــ انه لكذلك ... ؟ ايزيس ... ادعى أبانا رع القوى ، واطلبى اليه أن يعيد الحياة الى وحيدك .

وعند طلوع الفجر عندما بزغ رع من وادى امنتت واستقر فى زورق الزمان ، تصاعدت صلوات ايزيس خلال ضباب الصباح الى السموات العلى ، وأخذت تبتهل الى مبدع الأشياء فى كلمات

يقطعها البكاء والأنين أن ينصت الى ضراعتهـا الحزينة ، فقـد قضى ست على زوجهـا أوزيريس بالمـوت ذبحـا وتشريدها فى الارض ، وهاهو الآن قد سلب منها طفلها الوحيد ، وصرخت فى لوعة « أعده الى ثانيا أيها الاله رع ... أنت يامن تملك مفـاتيح الحياه والموت ، استمع لصلاتى ولا تدع ولدى الوحيد يؤخذ منى على هذا النحو ... »

وهكذا أخذت ايزيس تبث الاله حزنها ولوعتها ، وبينما الجماعة الحزينة تحملق فى السماء بعيون ضارعة ، ووجوه صامتة حزينة ، حدثت المعجزة ، فقد بلغت صلوات ايزيس مسامع رع ، وتوقف قارب الزمان عن المسير وهبط توت اله المعـرفة الى الارض ووقف مرة أخرى أمام الملكة الشريدة وقال : « أيتها الربة ... يامن تعـرفين كيف تستخدمين تعاليمى ، اعلمى أن الطفل حورس لن يلحق به أذى ، لان حفظه منـوط بقـارب رع ، لقـد جئت اليوم فى قارب قـرص الشمس من المكان الذى كان فيـه بالأمس لأن الظـلام قـد طغى عليك ، وان نورى سيبدد هذا الظلام باحياء الطفل حورس من أجل أمه ايزيس ... » .

وكانت ايزيس فى بداية الامر لا تحير جوابا ، ولكنها بعد ذلك ، ودون أن تنطق بكلمة قادت الاله الى الفراش ، حيث سجى جسد ولدها ، وأشارت الى الجثة المشـوهة بالدموع تنهمر وهمست ألم يمض الوقت بعـد ؟ ولكن لا ... ان لرع سلطانا على كل شيء وان كلمته لتمنح الحياة ... أعده الى ... اننى أبتهل اليك ...»

وقال توت : لا تخـافى يا ايزيس ... ولا تبكى يانفس ... لأننى هبطت من السماء لأنقذ الطفل من أجل أمه ...» وانحنى الاله على الطفل وأخذ يتلو كلمات السـحر التى تكمن فيها القـوة ... وعندئذ ... يا للعجب أى تحول قد حدث ... ؟ لقد لانت الأطراف المتجمدة ، واستدار الجسد ذو الشـكل المتميع ، وسرت الدماء فى خديه ووجهه ، وهنـاك ... نعم ... لايمكن لانسان أن يخطىء

النظر ... لقد أخذت بسمة شاحبة تداعب الشفتين الذابلتين ، وقال توت وهو يستدير الى ايزيس : « لقد عاد اليك طفلك ثانية فخذيه ، واشكرى رع الواحـد القوى لأنه سمع صـلاتك واعلمى أنه يرعى المظلومين والمغلوبين على أمرهم ... »

وقفزت ايزيس الى مهد الطفل فى جـذل وسرور ؟ وضمت الطفل الى صدرها فى لهفة ، ونسيت العالم فى غمرة فرحها ، ثم ذكرت أنها لم تؤد فروض الشكر الى ذلك الذى استجاب لصلاتها ، فاستدارت اليه لتشكره ... ولكن توت كان قد ذهب ، وحتى قارب الزمان كان فى ذلك الحين يسرع على طريقه المرسوم ...

- ١٦ -

وأخيرا آن الأوان لتبدأ ايزيس البحث من جديد عن جسدأوزيريس، ولكنها قبل أن تبدأ بحثها يجب أن تجد مأوى لحورس الصغير ، فهى تخشى عليه أتباع ست أن يعثروا به ، ويختطفوه تاركين لها الحـزن والأسى ، فذهبت تلتمس النصح من أختها نفتس فنصحتها بايوائه عند آمورا كاهنة الجزيرة المسحورة القريبة من بوزيريس .

ـ حقا ... وأى مأوى آمن من تركه مع آمورا على الجـزيرة المسحورة ، فهى الوحيدة سوانا التى تعرف أسرارها ، وليس من الحكمة أن تعرض حياة حورس للخطر مرة أخرى ... ولكن بفرض أن ذلك حدث فسيكون هناك فى مأمن ، فهو يستطيع بكلمة واحدة أن يبتعد عن الخطر ...

ـ أصبت يا أختاه ... ان ست لنذل ماكر وأنا أعلم بنواياه ، وقد يوفق الى طريقة سحرية تبطل تأثير تراتيلى ... سيكون ولدى آمنـا فى الجزيرة ....

وفى الصباح التالى أبحرت الاختان الى بوزيريس ، وفى العدوة الاخرى أبصرتا الجزيرة المسحورة ، وطلبتا من الملاح أن يعبر النهربهما الى تلك الجزيرة ، فأبى وقال يرد على احتجاجهما : «ان هذه الجـزيرة ليست من الارض فان أرواح الموتى تسكنها ، ولا يستطيع أحد أن يمس شواطئها ويعود حيا ، اطلبوا منى أى شىء آخر أقوم به مسرورا ، أما هذا فلا .. لست أجرؤ على ذلك ... ونقدت نفتس الملاح أجره وصرفته مشكورا ، وقالت لايزيس حين رحل :

ـ لقد أحسنا صنعا اذا كانت هذه الفكرة منتشرة عن الجزيرة فى هذه الانحاء ؛ فان نبأ حورس ومأواه لن يصل الى مسامع ست الشريرة .

ـ أصبت يا نفتس ... لقد أحسنا صنعا ؛ نادى الينا الكاهنة آمـورا اذن ...

وجعلت نفتس من يديها بوقا رن من خلاله عبر الماء .

آمورا ... آمورا ...

من ذا الذى ينادى آمورا ..؟ من ذا الذى جاء ليفسد على عزلتى ..؟

صدر الصوت عن عجوز انحدرت الى حافة الماء وقد اتشـحت بالبياض ؛ فأجابتها نفتس :

ـ ابنة سب ونوت وتعرفينها جيدا فتعالى واسرعى ..

وفى لحظات معدودات كانت الجزيرة تندفع نحو الشاطىء ، حيث وقفت الربتان ومعهما حورس ، ولما اقتربت الجزيرة ولامست الشاطىء خطا الجميع اليها ، وكانت الكاهنة عجوزا شمطاء ، ولكن وجهها كان يجتذب اليه نظر كل من رآه ، فقد كان الابتسام يعلوه دائما .

وجثت المرأة فى خشوع أمام زائريها ، ولكن ايزيس تقدمتاليها وأعانتها على النهوض ، وقالت لها : « أرى أنك تعرفيننى جيدا ، ولكننى ما جئت لألقى تكريمك وتقديسك ، فأنصتى بعناية لما أقول ، فان حسـن انصاتك وطاعتك العمياء يتوقف عليهما أكثر مما تظنين .. »

وفصلت ايزيس الامر بالاختصار ؛ وأصدرت تعليماتها للمحـافظة على الطفل ، ثم ودعت بعد ذلك وحيدها بين الدموع والالتياع ، ثم تحركت نحو الشاطىء وقالتوهى تسرح بصرها فى الجزيرة الجميلةذات الغابات والخمائل والعيون الجاريات ، تذكرى ... واحرسيه جيدا من كل أذى، فأجابت آمورا : « سأتذكر ... ولن يستطيع أى شر أن يناله هنا ؛ ثقى من ذلك ...» وابتعدت الجزيرة عن الشـاطىء فى سرعة كبيرة ؛ ثم استقرت وسط المجرى كما كانت من قبل ...

وأدارت ايزيس ظهرها للجزيرة ؛ وانطلقت مبتدئة بحثها الثانى عن أوزيريس ...

وقد اتخذت ايزيس لها قاربا من الغاب أول الأمر وجدلته بأعواد البردى ، ثم طلته بالقار من الداخل والخارج ، فجمع الى الخفة متانة وقوة ، وقد كان المصريون يعتقدون أن التماسيح لا تمس أحدا يركب قاربا من البردى ؛ وقد اعتبروا كل ما يصنع من البردى مقدسا تكريما للربة ايزيس ، ولما تم صنع القارب سيرته ايزيس مع المجرى باحثة عن جسد زوجها الحبيب ...

كان البحث فى هذه المرة شاقا ، لا يقاس الى بحثها الاول من حيث الصعوبة ، فان ست الشرير قد مزق جسد أخيه وبعثر أشلاءه الأربعة عشر فى أنحاء القطر المصرى ، وقد أمل بهذا ألا يستطيع أحد أن يجد كل هذه الأشياء ، فيعيد أوزيريس الى الحياة مرة أخرى ، فأى عجب اذن فى أن تشعر ايزيس باليأس وهى لا تعلم من أين ، ولا كيف تبدأ بحثها ..؟

كانت تمر بكل بلدة فتسأل الناس عن أية دلالة قد تؤدى الى كشف عضو من الأعضاء الدفينة ، وكانت تقيم فى كل مكان تعثر فيه على شلو من الأشلاء معبدا جميلا وتضع فيه تمثالا من الذهب لأوزيريس وكانت تلف الشلو الذى تجده بعناية فى نسيج من الكتان صنعته بمعاونة أختها نفتس وولدها أنوبيس ، وتحنطه بمهارة حتى لا يلحق به الفساد أو يطرأ عليه التغير ، وكثيرا ما كانت تنقضى الأسابيع طويلة مملة ، والشهور التى لا تنتهى تجر أقدامها فى بطء وتثاقل دون أن تعثر ايزيس على شيء ، وكان قلبها كثيرا ما يطفح بالحزن المرير ...

وذات مساء رسا القارب على الشاطىء قرب ابيدوس ، وكانت الشمس تسبح فى بحر من القرمز والذهب ، وكانت التلال الرملية الداكنة العارية طوال النهار ، تغتسل فى أشعتها الدافئة ، وقد اكتست زرقة وردية ، وكانت صفحة النهر الغبراء تعكس ألوان السماء ، أشعة حمراء قرمزية ، وصفراء برتقالية ، وقد ارتدت حزم من الأشعة البيض عن جدر المنازل والمعابد اللماعة على الشاطىء ، وقد تحولت الى لون داكن هادىء ، وحتى تلك الأكواخ الطينية البائسة ، قد رق

شكلها ولطف ، وكأنها تقاسم الكون مرحه وجماله فى هذه الساعة ، وكأنما اله الشمس حينما غاب وأخلد الى الراحة قد أسبغ على الكون بركاته ، محولا الركود الذى يؤذى الأنظار ويسئم العقول ، الى لوحة غنية بالألوان والظلال ..

وقد تسرب هدوء ذلك المنظر الى نفس ايزيس المتعبة ، وأغراها بالراحة ، فغادرت عينيها تلك النظرة الموزعة التى تعودت أن تملأهما ؛ وبدأت تسير بتثاقل على حافة النهر المغطاة بالرمال وانقض شهاب على قمة مذهبة لبناء ضخم ، مرسلا لسانا من اللهيب الوردى خلال النخيل الى الخليج حيث انتهى بكرة من النار ، وانبعثت من تلك الكرة أشعة كثيرة خاطفة لا تقوى العين على تحمل بريقها حتى أن المرأتين غطتا عيونهما بأيديهما ...

ووقفت ايزيس فجأة فى مقدم القارب تحملق بشدة فى الكرة النارية ، ثم أسرعت الى الدفة ، وسيرت القارب الى الخليج ، فلما وصل قفزت منه الى الشاطىء ، وأسرعت قدما ، ثم ألقت بنفسها على الرمال..

وتلاشت أشعة الغروب بسرعة ، وشاع الظلام فى الكون ، ولكن الشيء الغريب الملقى على الشاطىء كان لا يزال يلتمع ، وكان يبدو أنه حى ... فلما غابت الشمس بدا وكأنه مصدر النور ، ولكن ايزيس لم تلق بالا الى ذلك كله ؛ فقد وجدت رأس سيدها أوزيريس هناك ....

وقد أقامت ايزيس فى هذه البقعة معبدا فخما ، تمجيدا لعثورها على رأس أوزيريس ، وأهدت الى ذلك المعبد ـ معبد ابيدوس ـ الذى أصبح من أشهر معابد مصر ، تماثيل من الجرانيت لأوزيريس ولها ، ووضعت على أعلى قمة فى المعبد تمثالا من الذهب الخالص للاله ، بحيث تقع عليه أول أشعة للشمس المشرقة وآخر أشعة للشمس الغاربة ، كأنهما تحيتا الصباح والمساء .

ومر يوم بعد يوم ، وتبع الأسبوع أخاه فى تراخ ممل ، وقد كان الاخفاق أكثر احتمالا ، ولكن اليأس بظلمته لن يجد اليها سبيلا ، فقد

ملأها المنور على رأس أوزيريس بثقة لا تموت ، وعلى ذلك فقد [illegible] بحثها وصبرت عليه ...

وبعد جهد جهيد ، وزمن طويل ، انتهى البحث المضنى ، وتجمعت الأوصال المبعثرة ، وثوى جسد زوجها الممـزق فى القارب وعادت ايزيس الى الدلتا بمعونة أختها نفتس ، ودخلت بالقارب مناطق البردى ولما اطمأنت للمكان سجت الجسد على الرمال ، وتلت عليه الكلمات السحرية التى تعلمتها من توت ، وجرى للمرة الثانية ذلك العمل الذى أحال مداخل النيل عند الدلتا الى بقاع مقدسة ، ذلك هو بعث أوزيريس تم ذلك العمل فى جو من الرهبة الحزينة والجلال الرهيب ، وتعاون حب المرأة مع فضيلة الربة وقوتها وكلل ذلك كله رقى وتعاويذ ، فعاد أوزيريس الى الحياة مرة أخرى ...

- ١٧ -

انقضت بعد ذلك سنوات شب فيها حـورس - وديعة الجـزيرة المسحورة - عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال ، واصبح قويا متين البنـاء ، فلم يكن هناك من يهز الرمح كما يهزه حورس ، ولا من يجذب القوس ويسددها فلا تخطىء الهدف كما كان يصنع ، وفى حلقات الصراع كان له السبق فقد كان أكثر من بطل !! .. كان يصارع بالهراوة الطـويلة فيصرع أعداءه أجمعين ، أما مهارته فى السباحة والغوص ، وسرعته فى العدو ، فقد أصبحت مضرب الأمثال .

كان لا يخشى شيئا ، وكان متزنا فى جلال ، وكأن أباه ورثه القدرة على اجتذاب قلوب الناس ، بما جبل عليه من طيب الصفات وحميد الخلال ، هكذا كان حورس الشاب ابن ايزيس وأوزيريس .

ولم يكن حورس حتى ذلك الوقت يعلم شيئا عن أصله النبيل ، فعمل كفلاح بسيط ، وأمضى فى ذلك العمل أيام شبابه الأولى ، ولكن سلوكه النبيل وقوته الجبارة ، سرعان ما اجتذبا اليه أنظار الشيوخ والمجربين فى القرية ، فلم يخف عليهم أن هذا النبل الملوكى الذى وجد بينهم بشـكل غامض لاتجرى فى عروقه دماء العامة ، وأنه أرقى منهم ، ولقد كان حورس ضيفا محبوبا من الجميع كبارا وصغارا ، تفتح له الأبواب ، ويلقى الترحيب والتكريم حيثما حل أو نزل .

ولما اكتمل حورس ونضج ، فكر أوزيريس فى أنه من الحكمة أن ينبىء ولده بالمسئولية التى تنتظره فاستدعاه اليه ذات مساء بعد أن انتهى من عمله ودار بينهما الحديث التالى :

-هل رأيت الجنود الذين مروا على الطريق اليوم ؟ ..

- نعم يا أبتاه ، والناس يقولون ان حربا شبت فى الجنوب ، وانهم ماضون لمساعدة كتائب الملك .

- ستنقضى بضعة أيام قبل أن يصلوا الى العاصمة ، اذا كنت جنديا ياحورس فأى الدواب يصلح لك ؟

- الجواد ...

- ... ولماذا تقرر أن الجواد خير لك من أسد مدرب ؟ ..

- الأسد يصلح لخدمة من يريد الحماية والنجدة ، أما الجواد فأكثر صلاحية لمن يريد اللحاق بالعدو وابادته ، وهذا مطلب المحارب الصادق الذى لايفكر فى الاستنجاد بغير قوته ..

- وما هو أجل عمل يقوم به الانسان ؟ ..

- أن ينتقم لما أصاب أباه وأمه ..

- بورك فيك يابنى .. اجلس الى جوارى فان لدى الكثير مما أريد أن أقصه عليك ..

وهكذا قص أوزيريس على ولده حورس قصة حياته فى طيبة ، وجهاده لخير الناس ومصلحتهم ، مما أكسبه ثقتهم وحبهم ، وكيف ظهر ست فى الميدان ، وكيف استعمل أساليب الخداع والخيانة ، فاغتال أخاه واستولى بنذالة على العرش ، ولما وصل أوزيريس فى قصته الى وصف تجوال ايزيس وألمها وفوزها الأول ، ثم القتلة الثانية وتمزيق ست لأوصاله ، وقسوته فى معاملة ايزيس ، اربد وجه حورس غضبا وأومضت عيناه ، وتقبضت أصابعه ، وسرت بأطرافه وجسده رعدة الغضب ، الذى ثار داخل نفسه ، ولكنه لم يفه بكلمة ما ، وأنصت فى سكون الى رواية أبيه ، وكأنه كان يتشرب كل كلمة تقال ، حتى ألم بدقائق الجرائم التى اقترفها ذلك المغتصب .

وقال أوزيريس مختتما قصته : والآن فان يوم الحساب قد اقترب ولن أستطيع البقاء معك ، فالآلهة تدعونى اليها الى وطنى الأصيل فى السماء

واليك يابنى الوحيد كل مهمة الانتقام لما أصاب أباك من أذى ، وما لحق بأمك من اهانات ، ولكننى أعلم أن شرفنا سيستعيد مكانه القديم ، وسأرعاك يابنى من مقرى الجديد ، وسارعى جهادك المقبل ، وأرجو ألا تكون رعايتى بلا جدوى ! .. انك ستمضى قدما الى القتال ، وأنت تعلم أنك تقاتل للحق والعدالة فاجعل هذا الهدف نصب عينيك تنتصر دائما .

ووقف الرجلان ، الأب والابن ، وجها لوجه ، ونظر كلاهما الى الآخر ، ثم جثا الابن على ركبتيه ، وتناول يد أبيه ، وأحنى رأسه وقبلها قائلا : سأنتصر يا أبتاه ...

- ١٨ -

وصعدت السفينة ذات الشراع الحريرى مسرعة فى النهر ، ولم تكن فى هذه المرة متشحة بالسواد ، مثلما كانت وهى تحمل جسد أوزيريس ولكنها كانت تخطف الأبصار ببياضها الناصع البراق وكان الثلاثة الذين جلسوا تحت المظلة السميكة قرب الدفة ، يرقبون الضفاف وهى تختفى بعيون ذاهلة ، ترى ما الذى كان يجول بأفكارهم خلال آخر رحلة يقومون بها معا ؟.. ذكريات حلوة عن الساعات السعيدة التى قضوها فى هذه الأنحاء ، والتى كان صفوها يتكدر أحيانا عندما ينعكس وجه عدوهم المسخ على صفحة ذاكرتهم ، ولكنهم كانوا يتخلصون من هذه الصور بسرعة ، ولم يكونوا يتكلمون بين الحين والحين ، الا ليستعيدوا ذكرى مرحة ليوم من الأيام الخوالى .

وأسرع القارب تدفع الريح الطيبة شراعه ، وهناك على مدى النظر كانت تقبع مدينة بوتو ، وهى مدينة كبيرة من المدن الغابرة والى الشرق منها كانت تبدو قباب المعبد الذى أصبح فيما بعد مدينة عون العظيمة ، وفى العدوة المقابلة كانت تتناثر على الشاطىء أكواخ قليلة من الطين ، هى موقع مدينة لما تزل فى ضمير الغيب وهى ممفيس المستقبل ، وان كان حاضرها الفقير لايدل على مستقبلها المترف السعيد ، ولم يتوقف القارب عند واحدة من هذه المدن ، بل استمر فى الرحيل حتى بدا لهم تمثال أوزيريس الذهبى الذى يتوج معبد ابيدوس ، وترتد عنه أشعة رع فى ألسنة من اللهب الحى ، وأدار حورس دفة القارب الى الضفة الغربية حينما أمره أبوه بذلك ، وأسرع القارب فى هذه البقعة نحو شق غائر فى التلال ، ودلفت الجماعة الى الشاطىء وقطع أوزيريس ذلك الصمت قائلا : « لقد حانت ساعة الوداع ، وكم كنت أود أن أبقى بينكم ، لأتم العمل الذى بدأته وأنقى هذه الأرض من الشرور ولكننى يجب أن أمضى ، أما أنت يابنى ،

فانى أمنحك القوى الآلهية ؛ وأسبغ عليك لقب « ابن الشمس » الذى ستمكن بقوته من الانتصار على كل أعدائك ، فامض اذن وأد واجبك وليشد من أزرك علمك بأن رع سيكون معك دواما ، وسأرعاك أنا أيضا وأحميك من الأخطار ، والى اللقاء ياولدى .. ياولدى النبيل الى اللقاء ... »

وجالت الدموع فى عينى حورس ، وهو ينظر فى وجه أبيه وكأنه يتملى من صورته ؛ وقال : « الى اللقاء يا أبتاه .. وسأعيش دائما وأنا جدير بالاسم والشرف الذى منحتنى اياهما » .

ومضى أوزيريس تصحبه ايزيس نحو التلال فقال لها : « وأنت يازوجتى يامن ظللت شجاعة صادقة ، يامن تحملت الألم وضحيت من أجلى ، هل أستطيع أن أقول لك أيضا الى اللقاء .. ؟ ولكننى لن أسألك لحظة واحدة ، وسأظل فى انتظار اللحظة التى تلحقين بى فيها ثانية .. »
وقالت ايزيس باكية : « ألا يمكن غير ذلك يا زوجى الحبيب هل قدر لى أن أراك لأذوق مرارة فراقك مرة أخرى .. ؟ وعلى هذا النحو .. ؟ ألا أستطيع أن أصحبك الى حيث تذهب ؟ .. »

ـ لم يحن الوقت بعد ياايزيس وقد لايكون .. لقد قرر الآلهة أن ألحق بهم الان ، أما أنت فلا يزال أمامك ماتعملينه هنا سيمر فصل واحد أعود بعده اليك ، ولن يكون هناك بعدئذ رحيل ولا دموع ..

ـ انه لعسير .. انه لمن الصعب أن أفقدك مرة أخرى ، ولكن لتكن مشيئة السماء ..

ـ الى اللقاء ياوحيدتى الحبيبة ، ولن يبطىء ذلك اللقاء ، ولكن انظرى ان اله الشمس ينتظرنى ويجب أن أمضى .. الى اللقاء مرة أخرى ..
وبعد العناق الأخير انفصلا عن بعضهما ..

وعندما قارب أوزيريس الشق الغائر فى التلال ، هبط قارب الزمان وهبط حتى ملأ الثغرة ، ولما وصله أوزيريس ، وقف كائن فيه ورفعه الى القارب ، وبعد لحظة رآه الواقفون على الشاطىء ، يقف بجوار الدفة ،

وقد وقف الى جواره اله الشمس بنفسه ، وقال أوزيريس مادا ذراعيه للأمام : « لكم بركاتي وستكونون في رعايتي دائما .. ورع أيضا طلب الى أن أباركم باسمه .. »

وحمل نسيم المساء صوتا عميقا ، غنى النبرات أجش كأنه صوت أرغن ضخم ينبعث في موجات لاتنتهي من النغمات الرقيقة الحلوة: سيتوجون بالخلود والسعادة « .. أولئك الذين أخلصوا الى النهاية حتى الموت .. انهم يبكون اليوم ، ولكن المسرة ستأتي مع الصباح . وستكون البقية مفرحة .. فثقوا أولا ولا تخشوا شيئا » وعندما سكن صوت اله الشمس انزلق زورق الزمان الى أعماق الليل ..

وأبحرت ايزيس في صحبة حورس بعد أن غادرهما أوزيريس ، وسار بهما القارب عدة أيام دون توقف حتى وصل الى أرض بعيدة في أقصى الجنوب ..

وتقمص رع في صورة انسان وهبط الى الأرض ، وهو القادر على الوجود في أي مكان ليحكم تلك الأرض مساعدة لولده ، وكان ست في هذه الآونة في الدلتا ، وكأن المستنقعات وأدغال البردى ، كانت تناسب طبيعته أكثر من السهول الجافة في الجنوب وكان السكان في تلك الأنحاء يئنون تحت حكمه ويتلهفون على عودة عهد أوزيريس ، ويتحينون الفرصة للقيام بثورة على ذلك الطاغية وعندئذ يضطر المارد الى ترك أرض الجنوب وشأنها ..

ولكن أهل النوبة وهم برابرة متوحشون كانوا يفضلون حكم ست الموسوم بالفوضى على حكم رع العادل المنظم . ولذلك حاربوه فلم يسع رع الا أن اقتحم عليهم ديارهم ، وقضى على الثورة واعتقل قادتها وذبحهم ، ثم عاد الى ادفو حيث وصل حورس وطلب اليه أن يمضي ليجهز على بقيتهم ويتم هزيمتهم ..

ولم يكن حورس قد نسي القوى السماوية التي خلعها عليه أبوه فتشكل في صورة قرص الشمس المجنح ، وصعد في السماء فأبصر من مكانه المشرف

بأعداء أبيه يتكتلون معا فهبط عليهم في غضب كي يفقدهم حواسهم ، وفي غمرة الفزع أعملوا القتل في بعضهم البعض وعاد حورس بعد ذلك الى قارب رع الذي اقترح أن يرحلوا بطريق النهر ؛ ليكونوا على مرأى من المعركة ..

وكانت المردة تسكن الأرض في تلك العصور ، وكانت ذوات قوى معجزة ، فلما مضى رع وحورس وأصبحا على مقربة من أعدائهما ليراقبا حركاتهم ؛ تشكل اتباع ست على صور التماسيح وأفراس البحر وخاضوا في الماء ؛ وقد أمل العدو أن يتغلب على الآلهين بهذه الصورة .

وكانت أسلحة سكان الوادي كأسلحة غيرهم من الشعوب التي على الفطرة ؛ فكانت في أول الأمر آلات حادة من الحجر ؛ كالتي نراها في المتاحف اليوم وكان حورس أول من اكتشف استعمال الحديد فسلح أتباعه بحراب وسهام كسيت أطرافها بهذا المعدن ، فلم يمض وقت طويل حتى أثبتت هذه الأسلحة تفوقها وقيمتها الكبيرة .

وأبصر رجال حورس أن العدو في الماء ، فتقدموا في حماسة ليهاجموه وكان كل رجل يحمل علاوة على حربته سلسلة طويلة من الحديد ، فكانوا يهزون حرابهم ويسددونها الى الوحوش ، ثم يكبلون مايصيدون بالسلاسل ويجرونه الى الشاطىء حيث يذبحونه .

ولكن بعض رجال العدو فروا الى الشمال ، فانطلق في أثرهم حورس يطاردهم مطاردة عنيفة ، ووقعت بين الطرفين معارك صغيرة ، مني فيها العدو بخسارة كبيرة وخاصة عند دندرة ، فقد انتظر حورس يوما وليلة بطولهما حتى أبصر بأعدائه يتقدمون ، فانقض عليهم وألحق بهم قتلا وخسارة كبيرين .

وتبع ذلك مطاردة عنيفة ، كان العدو خلالها يفر مسرعا الى الشمال أمام الآله الذي لايهدأ ، فلما وصلوا الى الدلتا أسرعوا الى ست وطلبوا أن يقاتلوا تحت لوائه ؛ وكان الغضب لهذا التمرد الحادث في الجنوب يقض مضجع المارد وكان متأهبا للسير جنوبا ليقضي على هؤلاء الثوار القضاء المبرم ؛ ولكن وصول فلول الجيش المنهزم أمام حورس قلب خطته رأسا على عقب ؛

هونا عدوه القديم الذي بعث من جديد في صورة ولده ، واستمر في مسيره ، ويبحث عنه الى أن يلقى هذا الشاب الجرئ ، ويستأصل شأفته من وجه الأرض ..

وأسرع عيون حورس اليه ينبئونه أن قوة كبيرة من العدو تستقر في وروده فأسرع بإرسال رسله في طول البلاد وعرضها يطلب من المخلصين لبيت أوزوريس أن يتجمعوا حول رايته دون ابطاء ثم ذهب ليرى أمه ايزيس في الجزيرة المسحورة قرب بوزوريس ..

وقال حورس بعد أن تبادلا التحية الحارة : « لقد حلت ساعة الحساب ، ولن ست ينتظرني ، والتجربة الكبرى على وشك أن تجرى ولست أخشى فشلا في معركتنا ، ولكني قد أسقط في الميدان ولهذا جئت لأقول لك الوداع ... »

واحتوت الأم ولدها بين ذراعيها وكم كان متين البنيان قويا وكم كان شجاعا وكم كانت الذكرى أليمة .. لقد كان حقا اباه وقد وأسرعت أخرى وطارت بها الذاكرة الى الأيام التي كانت فيها هي وأوزوريس صغيرين معا وقالت فجأة : « سآتي معك يا طفلي .. لا تخف علي .. فسأكون في أمن ولكني أرغب أن أرى نهاية عدوي ... »

وهكذا انطلق الاثنان الى الميدان حيث يحتشد أنصار حورس وتصاعدت صيحات عالية ترحب بمقدم القائد الشاب في حرارة . ثم انحنوا الى الأرض في خشوع حينما رأوا من تصحبه ، ولم يعتدلوا من انحنائهم حتى منحتهم ايزيس البركة في قتالهم المقبل .

وفي بكور اليوم التالي ظهرت قوات ست ، فلم يمهلها حورس بل بدأ هجومه عليها وطارت المفاجأة بصواب بعض أتباع المارد ففروا رعبا ، ولكن ست حرض البقية بالكلام والضربات على دخول المعركة التي أخذت شكلا عنيفا قويا في كلا الجانبين ..

وكان القتال مخيفا وحشيا ، وكان النصر يتأرجح بين المعسكرين تارة يميل لهذا وتارة يميل لذاك ؛ وكان يبدو في لحظة معينة أن حورس قد

ربح الجولة ؛ ولكن ذلك المارد المخيف سرعان مايندفع في عصبية أهوج وبقوة سلاحه يدفع العدو أمامه . واستمر القتال يومين كاملين ، ولكن الحال ظلت كما هي ، لايمكن الحكم على نتيجتها ؛ وعندما طلع فجر اليوم الثالث ؛ واكتست السماء لونا ورديا . حينما نظر اليها اله الشمس اشتبكت القوتان في نضال مميت .

واستمرت المعركة طول النهار وبدأت أشعة الغروب تمس قمم التلال البعيدة حينما أصبح حورس وجها لوجه مع ست فقال :

« وأخيرا أيها القاتل .. لقد حلت ساعة الحساب وستدفع الثمن غاليا .. »

وزمجر ست « وأخيرا .. ياابن غريمي .. الآن سأذبحك وأفنيك أنت ومن يلوذ بك الى الأبد ... »

والتقى الرمحان ؛ والتحم السلاحان بوحشية أخذت تزداد شيئا فشيئا ؛ وقد حبس الجيشان أنفاسهما ليرقبا ذلك الصراع الرهيب وقد ثبتت عيونهما على الماردين اللذين يتبارزان وسطهما وأخذ المتبارزان يصولان ويجولان تحت سيل من الضربات يوجهه كل منهما للآخر ؛ ويسقط حورس فترتفع صيحات الجزع من المتفرجين . ولكنه يهب واقفا في الحال . وقد اكتسب قوة من هذه السقطة ثم يستأنفان الهجوم ؛ كي يملك أحدهما فرصة على الآخر ؛ وأخيرا بدا أن شباب حورس وقوته قد بدأ يظهران على ست الذي أخذ يتخاذل ويحل به الاعياء .

وكان اله الشمس يسرع في زورقه حتى قارب « مانو » وكان يوشك أن يدخل وادي الدوات المظلم ، وكانت أشعته تنعكس على أسنة الرماح ، وقد كسا نوره القرمزي الميدان بالدماء ثم استقر على قمة جبل ونظر الى أسفل ليشهد ذلك النضال الضخم ، وفي تلك اللحظة اندفع رمح حورس الطويل الى الأمام في سرعة تفوق البرق وأخذ ست على غرة ، وشق الرمح طريقه خلال الدرع مخترقا اياه الى القلب ، وسقط المارد وهو يئن أنة اهتزت لها الأرض ، وتبعتها صيحة فرح صدرت عن رجال حورس الأوفياء .

وتقدم الشاب بهدوء الى الأمام ، وجذب رمحه من صدر غريمه وهو ينظر الى ذلك الوجه الشرير ، الملقى عند قدميه ، ولكن الشفتين لم تبسما ، ولم تتغير الملامح ، لأن ست كان ميتا . ولن يسيء مرة أخرى الى أحد ...

كتاب الحكمة

كان نفر ـ كا ـ بتاح الابن الوحيد لفرعون مصر ، وقد زوجه من الأميرة الجميلة آهورا ، وولد لهما طفل أسمياه ميراب ، هكذا سجلت أسماؤهم فى دار الحياة .

ورغم أن نفر ـ كا ـ بتاح كان وحيد الملك ، الا أنه لم يوجه همه الا الى المخطوطات القديمة ، التى دونهـــا الكتبة المصريون على أوراق البردى ، وأودعوها دار الحياة ، أو تلك الرموز المحفورة على جدران المعابد لقد كان ينفق أيامه جميعا فى دراسة ما كتبه الأقدمون .

وذات صباح قصد الى المعبد ليصلى للآلهة ، ولكنه أبصر ببعض النقوش فأخذ يقرؤها ، ونسى أن يصلى للآلهة ، بل لقد نسى الالهة جميعا ، ونسى الكهنة وكل شىء حوله ، واستغرق فى القراءة لا يحس شيئا سواها ، وبينما هو فى استغراقه ذاك ، روعته ضحكة ساخرة عريضة ، جاءته من ورائه ، فنظر فاذا أحد الكهنة فى ثيابه البيض وقـــد دمعت عيناه لكثرة ما ضحك فسأله :

ـ « لماذا تضحك منى أيها الكاهن .. ؟ » فأجابه الكاهن .

ـ « لأنك تنفق وقتك فى قراءة ما لا يفيد ، ان كنت تريد قراءة شىء ذى قيمة فاننى أدلك على مخبأ كتاب الحكمة الذى أودعه توت فنون سحره ، وأسرار معرفته .

وسأله نفر ـ كا ـ بتاح أسئلة متلاحقة فى لهفة وشغف شـــديدين فأجابه الكاهن :

ـ « لقد كتب توت ذلك الكتاب بيده ، وهو يحوى كل ما بالعـالم من فنون السحر ، فلو قرأت صفحته الأولى لكشف عن بصرك الغطاء ورأيت كل شىء فى السموات والأرض ، وما فى باطن الكهوف والبحار ، وستفهم

لغة الطير فى الهواء ، وستعلم ما تقوله الزواحف فى جحورها ، وسترى الأسماك فى أعماق البحار المظلمة .

ولو قرأت صفحته الثانية ، لأمكنك أن ترجع الى الدنيا فى صورتك السابقة ، بعد أن تموت وتصبح فى عالم الأرواح .

وسترى بعد ذلك الشمس مشرقة ، والقمر بدرا ، والنجوم ساطعة فى السماء ، كل ذلك فى آن واحد ، بل وسترى الآلهة أنفسهم فى السماء .

وعندئذ قال نفر ـ كا ـ بتاح : « بحق حياة الفرعون ؛ سيصبح ذلك الكتاب ملكى ، ولك أن تطلب منى ما تريد ، وعلى أن أجيب كل ما تطلب » فقال الكاهن : « أنفق على جنازتى ؛ واستوثق من أننى أدفن كأحد الأغنياء ؛ وحولى كهنة يرتلون ، ونسوة يبكين وتقدم القرابين للآلهة من أجلى ، ويراق الخمر المقدس ؛ وذلك حتى تستقر روحى فى سلام فى حقول آلوا ؛ يجب أن ينفق على جنازتى مائة قطعة من الفضة » .

وسرعان ما أرسل نفر ـ كا ـ بتاح رسولا ليأتيه بالنقود ، فلما عاد الرسول سلم الكاهن فى يديه مائة قطعة من الفضة فلما تسلمها الكاهن قال لنفر ـ كا ـ بتاح :

ان الكتاب فى قفط فى وسط النهر .

فى وسط النهر صندوق من الحديد .

وفى صندوق الحديد صندوق من البرنز .

وفى صندوق البرنز صندوق من خشب الصندل .

وفى صندوق خشب الصندل صندوق من الأبنوس والعاج .

وفى صندوق العاج والأبنوس صندوق من الفضة .

وفى صندوق الفضة صندوق من ذهب .

وفى صندوق الذهب تجد كتاب الحكمة الذى كتبه توت ومن حول

الصندوق الحديدى تسعى أفاع وعقارب وأنواع شتى من الزواحف ، وفوق كل ذلك أفعى مهولة لا يستطيع أن يقتلها انسان .

لقد رصدت كل هذه الزواحف لحراسة كتاب الحكمة ، الذى كتبه توت بيديه .

ولم يكد الكاهن يفرغ من حديثه ، حتى خرج نفر ـ كا ـ بتاح من المعبد ، لأن فرحه كان كبيرا لدرجة أنه لم يدر أين هو ؟ وأسرع الخطى الى زوجته آهورا ليخبرها بنبأ الكتاب وليخطرها بأنه ينبغى له أن يرحل الى قفط لساعته ، ليحصل على هذا الكتاب الفريد .

ولكن آهورا كانت حزينة جدا لهذا النبأ ، وقالت له « اعدل عن هذه الرحلة ، لأن المتاعب والأحزان تنتظرك فى أرض الجنوب » قالت ذلك ووضعت يدها على ساعد نفر ـ كا ـ بتاح ، كأنما ينبغى عليها أن تنقذه من الحزن الذى ينتظره ، ولكنه لم يكن ممن يتراجعون عن عزمهم بسهولة ، فانطلق من أمامها وذهب توا الى أبيه الفرعون .

وقص على أبيه الفرعون كل ما علم وقال له : « اعطنى السفينة الملكية يا أبت ، حتى يتسنى لى أن أذهب الى الجنوب ، وأحصل على كتاب الحكمة ، وسيكون معى زوجتى آهورا وولدى ميراب » فأصدر الفرعون أوامره فأعد اليخت الملكى ، واستقبله نفر ـ كا ـ بتاح ، وزوجته آهورا وولدهما ميراب ، وصعدت السفينة فى النهر حتى وصلت الى قفط ، فلما وصلوا اليها خف لاستقبالهم على الشاطئ كهنة ايزيس ورئيسهم فى قفط ، ليرحبوا بالأمير الشاب وزوجته آهورا وولدهما ميراب ، وانطلقوا جميعا فى موكب كبير الى معبد الربة وتقرب نفر ـ كا ـ بتاح الى الربة بذبح ثور وأوزة ، وأراق زقاق النبيذ على المذبح ، تكريما لايزيس وولدها حورس ، ثم أقام كهنة ايزيس وزوجاتهم احتفالا كبيرا دام أربعة أيام تكريما لنفر ـ كا ـ بتاح وزوجته آهورا .

وفى صبيحة اليوم الخامس ، دعا نفر ـ كا ـ بتاح اليه أحد كهنة ايزيس ، الذين حذقوا فنون السحر جميعا ، وعرفوا أسرار الآلهة ، ثم

عكفوا على صنع صندوق سحرى كالغواصة ؛ وأودعوه تماثيل رجال ومؤنا ثم تليت تعويذة سحرية على المخلوقات الجديدة ، فدبت فيها الحياة ، وتنفس الرجال ، وتحركوا داخل الغواصة ، ثم غمر نفر – كا – بتاح الغواصة فى النهر وقال : « يا خدام .. يا خدام افعلوا ما آمركم به » ثم حمل السفينة الملكية بالرمال وأبحر على النهر وحيدا ، بينما جلست آمورا على شاطىء النهر فى قلق ، ترقب وتنتظر ، لأنهـــا كانت تحس أن المتاعب والاحزان ستعقب هذه الرحلة الى أرض الجنوب .

وغاص الرجال المسحورون بغواصتهم أياما ثلاثة بلياليها فى النهر ، فلما توقفوا ، توقفت السفينة الملكية عن السير ، وأدرك نفر – كا – بتاح أنه وصل الى المكان الذى فيه كتاب الحكمة .

والقى نفر – كا – بتاح بحمولة السفينة من الرمال فى النهر صانعا سدين ، وبين السدين كان فراغ طوله خمسون ذراعا وعرضه خمســـون ذراعا ، وفى وسط ذلك الفراغ كان الصندوق ملقى ، والى جواره التفت أفعى مهولة على نفسها ، تلك الأفعى التى قال الكاهن انها لا يمكن أن يقتلها انسان ، وأحاط بالصندوق من كل جانب أفاع وعقارب ، وأنواع شتى من الزواحف .

ووقف نفر – كا – بتاح فى مقدمة السفينة الملكية ، وصاح عبر المياه فى الأفاعى والعقارب وشتى الزواحف صيحة عالية مرعبة ، وتلا عليهـــا تعويذة سحرية ، فلمـــا انتهت التعويذة جمدت الأفاعى والعقارب وشتى الزواحف فى أماكنها ، لأنها سحرت بكلمات نفر – كا – بتاح ، فلم تستطع حراكا ، وتحرك نفر – كا – بتاح حتى حاذى حافة الفراغ ، ثم نزل من سفينته ، وسار بين الأفاعى والعقارب وشتى الزواحف ، وكانت كلها مفتحة العيون ، تنظـــر اليه وتراه ، ولكنها لا تستطيع الحركة فقـــد أثرت التعويذة عليها .

وأصبح نفر – كا – بتاح وجها لوجه مع الأفعى التى لا يستطيع أن يقتلها انسان ورفعت الأفعى رأسها وتراجعت قليـــلا الى الوراء – استعدادا

للمعركة القادمة ؛ وهجم عليها نفر – كا – بتاح وفصل رأسها عن الجسد ولكن سرعان ما التصق الجســم بالرأس مرة اخرى ، وعادت الأفعى التى لا يمكن أن يقتلها انسان الى الحياة مرة أخرى واستعدت لمواصلة النزال ، وهجم عليها نفر – كا – بتاح مرة ثانية ؛ وضربهـــا ضربة قوية ؛ أطاحت بالرأس بعيدا عن الجسد ؛ ولكن سرعان ما انضم الجسد والرأس الى بعضهما البعض وعادت الأفعى التى لايمكن أن يقتلها انسان الى الحياة مرة أخرى ، واستعدت لاستئناف الصراع ، وأدرك نفر – كا – بتاح أن الأفعى خالدة ، ولا يمكن ذبحها والقضاء عليها الا بالحيلة ، فعاود الهجوم عليها للمرة الثالثة ، وشطرها نصفين ، وذر الرمال على مكان القطع ، حتى اذا ما حاول النصفان الاتصال ثانية ، لم يتمكنا من ذلك لوجود رمل يفصل بينهما ، وهكذا ارتمت الأفعى التى لايستطيع أن يقتلها انسان ، عديمة الحيلة بين يديه .

ثم تقدم نفر – كا – بتاح الى الصنـــدوق الكبير حيث هو ملقى فى الفراغ وسط المجرى وكانت الأفاعى والعقارب وشتى الزواحف ترقبه ، ولكنها لا تستطيع منعه ، وفتح الصندوق الحديدى فوجد صندوقا برونزيا ، وفى الصندوق البرنزى وجد صندوقا من خشب الصنـــدل . وفى صندوق خشب الصندل وجد صندوقا من الأبنوس والعاج ، وفى الصندوق الأخير وجد صندوقا من الفضة ، وفى صندوق الفضة وجد صندوقا من الذهب ، وفى الصندوق الذهبى وجد كتاب الحكمة الذى كتبه توت بيديه ...

وفتح نفر – كا – بتاح الكتاب وقرأ الصفحة الأولى فكشف عن بصره الغطاء ، أطلع على ما فى السموات والأرض ، وما فى باطن الكهوف والبحار . وفهم منطق الطير فى الهواء ، وعلم بمـــا تقوله الزواحف فى جحورها ، ورأى الأسماك فى أعماق البحار المظلمة .

وقرأ الصفحة الثانية ، فرأى الشمس مشرقة ، والقمر بدرا ؛ والنجوم ساطعة فى السماء ؛ وكل ذلك فى ان واحد ؛ بل ورأى الآلهة أنفسهم فى السماء .

وعندئذ أدرك نفر – كا – بتاح أن ما قاله الكاهن كان صحيحا وذكر

أن زوجته آهورا تنتظره على الشاطىء عند قفط ، فتلا تعويذة سحرية على الخدام الذين صنعهم قائلا : « يا خدام يا خدام نفذوا ما آمركم به ؛ وارجعوا بي الى المكان الذى جئت منه » .

وجد الرجال المسحورون ليلا ونهارا فى الرحيل ؛ حتى وصلوا الى قفط حيث تجلت آهورا على ضفة النهر ، وكانت قد صامت عن الطعام والشراب منذ رحل عنها نفر ـ كا ـ بتاح لأنها كانت تترقب الحزن والمتاعب التى توشك أن تنزل بهم جميعا .

ولكنها حينما رأت نفر ـ كا ـ بتاح عائدا اليهم فى سفينته الملكية ، رقص قلبها فرحاً وأقبل عليها نفر ـ كا ـ بتاح فوضع بين يديهـا كتاب الحكمة ، وطلب منها أن تقرأ فيه ، فعندما قرأت الصفحة الأولى ؛ كشف عن بصرها الغطاء ، وأطلعت على ما فى السموات والارض ، وما فى باطن الكهوف والبحار ؛ وفهمت منطق الطير فى الهواء ؛ وعلمت بما تقـوله الزواحف فى جحورها ، ورأت الأسماك فى أعماق البحار المظلمة .

ولما قرأت الصفحة الثانية ، رأت الشمس مشرقة ، والقمـر بدرا ؛ والنجوم ساطعة فى السماء ، كل ذلك فى آن واحد ، بل ورأت الآلهـة أنفسهم فى السماء .

ودعا نفر ـ كا ـ بتاح بقطعة نظيفة من البردى ، وكوب من الجعة ثم كتب كل التعاويذ التى يحتوى عليها كتاب الحكمة ، ثم تناول كوب الجعة ، وغسل فيه رقعة البردى حتى انمحت الكتابة تماما وعادت ورقة البردى نظيفة كما كانت ، ثم جرع الكوب حتى الثمالة ، وهكذا حفظ كل التعاويذ التى كان الكتاب يحتويها عن ظهر قلب ، وهـذه هى الطريقة التى يتبعها كبار السحرة .

ثم ذهب نفر ـ كا ـ بتاح وأهورا الى معبد ايزيس ؛ وقدما القرابين اليها والى ولدها حورس وأقاما احتفالا كبيرا ؛ وفى اليوم التالى صعدا الى ظهر السفينة الملكية ، وأبحرا مسرورين على النهر متجهين صوب الشمال تدفع شراعهما ريح رخاء .

ولكن انتظر ... لقد اكتشف توت ضياع كتابه الحبيب « كتاب الحكمة » فثار غاضباً كالقط البرى المتوحش الذى يقطن الجنوب ، وأسرع الى رع كبير الآلهة ، وقص عليه القصة قائلا :

« ان نفر ـ كا ـ بتاح قد عثر على صندوقى المسحور وفتحه وسرق كتابى ... حتى كتاب الحكمة يسرقونه ... ؟ لقد ذبح الحراس الذين يحيطون بالصندوق ، والأفعى التى لا يستطيع قتلها انسان قد خلفها عديمة الحيلة ، فانتقم لى يا رع من نفر ـ كا ـ بتاح بن فرعون ... »

وأجاب رع ذو الجلال قائلا : « خذه هو وزوجته وابنهمـا ، وافعل بهم جميعا ما تشاء » .

وهكذا فان المتاعب والأحزان التى تنبأت بها آهورا كانت على وشك الوقوع ، لأن توت قد حصـل على اذن من رع ، بأن يجرى قضاءه فيمن سرق كتاب الحكمة .

وبينما السفينة الملكية مبحرة شمالاً فى هدوء ورخاء ، خرج الصبى ميراب من تحت المظلة ، وتقدم حتى بلغ حافة السفينة ، وأخذ يحدق فى الماء فاجتذبته قوة رع ، فسقط فى الماء وغرق لساعته وعند ما سقط فى الماء صرخ الملاحون فى السفينة ، وصاح الملأ على الشـاطىء ؛ ولـكنهم لم يستطيعوا انقاذه جميعا ...

وخرج نفر ـ كا ـ بتاح من القمرة ، وقرأ تعويذة سحرية على الماء ، فطفت جثة ميراب على السطح فانتشلوها ومددوها على ظهر السفينة ، وقرأ نفر ـ كا ـ بتاح تعويذة أخرى بلغ من قوتها أن الطفل الميت تكلم ، وأخبر نفر ـ كا ـ بتاح بكل ما حدث بين الآلهة وأن توت يعمل على الانتقام ، وأن رع قد منحه قوته ليستخدمها ضد سارق كتاب الحكمة .

وأصدر نفر ـ كا ـ بتاح أوامره فاتجهت السفينة الى قفط مرة ثانية حتى يدفن الصبى ميراب بالاحتفال اللائق بابن أحد الأمراء ولما انتهت مراسيم الاحتفال بدفنه ، أبحرت السفينة مرة أخرى صوب أرض الشمال

وقد فقدت الرحلة بهجتها بعد أن مات ميراب وقد أثقلت الهموم قلب آمورا انتظارا للأحزان والمتاعب المقبلة ، لأن انتقام توت لم ينته بعد ...

ووصلت السفينة الى المكان الذى غرق فيه ميراب ، فخرجت آمورا من تحت المظلة ، وتقدمت الى حافة السفينة وأطلت فى المياه فاجتذبتها قوة رع فسقطت فى الماء ، وغرقت لساعتها ؛ وعندما سقطت أبصر بها ملاحو السفينة ، وأبصر بها المارة على الضفة ؛ ولكنهـــــم جميعا لم يستطيعوا انقاذها .

وخرج نفر - كا - بتاح من القمرة وتلا تعويذة سحرية على الماء ، فطفت جثة آمورا على سطح الماء ، فانتشلها الملاحون . ومددوها على سطح السفينة ؛ وتلا نفر - كا - بتاح تعويذة أخرى بلغ من قوتها أن الجسدالميت تكلم ، وأخبره بمــا دار بين الآلهة . وبأن توت لا يزال يجرى وراء الانتقام ، لأن رع قد منحه قوته ليستخدمها ضد سارق كتاب الحكمة .

وأصدر نفر - كا - بتاح أوامره فعادت السفينة أدراجهـا الى قفط حتى تدفن آمورا بالاحتفال اللائق بابنة ملك ، ولما انتهت مراسيم الدفن ؛ أبحرت السفينة الملكية مرة أخرى صوب أرض الشمال ؛ ويا لها من رحلة مقبضة حزينة هذه المرة ... فقد ماتت آمورا ومات ميراب ، ومع ذلك فلا يزال توت يريد الانتقام ...

ووصلت السفينة الى المكان الذى غرق فيه ميراب وغرقت فيه آمورا ، فأحس نفر - كا - بتاح بأن قوة رع تجذبه ، وكان متأكدا من أنهـــا ستغلب عليه رغم مقاومته لها ، فتناول قطعة من نسيج الكتان الملكى ؛ جيدة متينة ؛ فصنع منها نطاقا ، وربط بها كتاب الحكمة الى صدره لأنه صمم على ألا يحصل توت على كتابه مرة أخرى .

وعندئذ جذبته القوة الخفية بشدة هذه المرة ؛ فوجد نفسه يخرج من تحت المظلة ، ثم ألقى بنفسه فى النهر ؛ فغرق لساعته ؛ وعندما سقط فى النهر أبصره الملاحون فى السفينة والمـــارة على الضفة ولكنهم لم يستطيعوا انقاذه جميعا ، وعندما بحثوا عن جثته لم يعثروا عليها .

وهكذا أبحرت السفينة الملكية شمالا حتى وصلت إلى أرض الشمال وألقت مراسيها فى ممفيس ، وذهب ربانهـــا الى الفرعون وأخبره بكل ما حدث ...

ولبس الملك ثياب الحداد ، وكذلك رجال البلاط ؛ والكاهن الأكبر وسائر كهنة ممفيس ، ورجال الجيش لبسوا جميعا ثياب الحداد ؛ ثم سار الجمع فى موكب حزين الى المرفأ ؛ حيث ترسو السفينة الملكية ، وعندما وصلوا اليها أبصروا بجثة نفر - كا - بتاح طافية بقرب السفينة ، بجوار المجاديف الكبرى ، ولقد حدثت هذه المعجزة نتيجة لقوة نفر - كا - بتاح السحرية ، فقد ظل ساحرا عظيما حتى فى مماته ؛ لأنه قد أذاب التعاويذ فى كوب الجعة وشربها .

وانتشلت الجثة فأبصروا بكتاب الحكمة مربوطا الى صــدره ، بنطاق من الكتان وأصـــدر الملك أمره أن يدفن نفر - كا - بتاح بالاحتفال اللائق بابن ملك ، وأن يدفن معه كتاب الحكمة .

وهكذا تحقق انتقام توت ... ولكن كتاب الحــكمة ظل مع نفر - كا - بتاح ...

الخنزير الأسود

انني أعلم لماذا أطلق أسم حورس على مدينة بى ؟ وسأقص عليكم نبأها ... كان العداء والكراهية مستحكمين بين حورس اله الخصب ؛ وست اله الشر الذى ذبح أباه أوزيريس وشرد أمه ايزيس ، وكان بينهما عراك وصراع ، وكلما تقدم القتال ازداد شدة وعنفا ؛ ولم ينحز النصر الى جانب من الجانبين ؛ رغم ان الآلهة كانوا يؤيدون حورس .

وكان ست شديد المكر والدهاء ، يحاول التغلب على خصمه بالمكر والخديعة ، لا بالشجاعة والمهارة فى القتـــال ؛ وكانت لديه القدرة على التشكل بأى شكل يريده ؛ فلا يستطيع معرفتـه انســان ولا اله ؛ هـذه قدرة ست .. أما قدرة حورس فكانت من نوع آخـر لأن الحق والعدل ينتميان لحورس ، أما الغش والخديعة فلا يمتان اليه بصلة أو سبب ؛ وكان من خصائص حورس أن من نظـر فى عينيه الزرقاوين الصافيتين ، يرى المستقبل منعكسا على حدقتيهما . ولذلك كان البشر والآلهة على السواء ، يتجهون الى حورس حينما يريدون علم المستقبل المغيب .

وقد وصل الى علم ست أن رع سيتشاور مع حورس وهذه ـ فيما يعتقد ـ فرصته المواتية ليصيب مقتلا من حورس ، ولذلك تشكل فى صورة خنزير أسود ، فكان منظره رهيبا حقا ، وقد كشر عن أنيابه الطويلة الحادة واكتسى بلون السحاب المرعد ، كانت نظرته متوحشة خبيثة تلقى الرعب فى قلوب الناس .

وأقبل رع ذو الجلال على حفيده حورس وتحدث اليه قائلا « دعنى أنظر فى عينيك الصافيتين لأرى ما سيجىء به المستقبل » وحدق فى عينى حورس وكان لونهما كلون المياه الخضراء المنبسطة عندما تنعكس عليهـــا ســـماء الصيف الصافية ؛ وبينما هو ينظر فى عينى حورس اذا بالخنزير الأسود يمر .

ولم يعرف رع أن ذلك الخنزير الأسود ؛ لم يكن الا ذلك الاله الشرير فصاح فى حورس ، أنظر الى ذلك الخنزير الاسود .. اننى لم أر خنزيرا بهذه الضخامة ، أو بهذه الوحشية ، ونظر حورس ولكنه لم يعرف ست بهذهالصورة الغريبة ، وظن أنه خنزير برى منالخنازير التى تقطن غابات الشمال ، وهكذا ظل بلا حرس ولا حماية من عدوه الغادر ... !

وعندئذ وجه ست قذفة من النار الى عين حورس ، فصرخ حورس من شدة الألم الذى أحدثته النيران ؛ فصاح غاضبا ، انه ست ... وقد قذفنى فى عينى بالنيران ، ولكن ست سرعان ما اختفى ؛ ولم ير الخنزير الأسود مرة أخرى .،

وحلت لعنة رع بالخنزير بسبب ست فقال : ، ليكن الخنزير قربانا لحورس ، ؛ والى يومنا هذا يضحى الناس بالخنزير اذا كان القمر بدرا ؛ لأن ستعدو حورس وقاتل أوزيريس اتخذصورته ليصيب الآله ذا العيون الزرق ولهذا السبب يعتبر رعاة الخنازير فى مصر منبوذين ملوثين ؛ محرما عليهم دخول المعابد وتقديم القرابين للآلهة ، ولا يتزوج أبناؤهم أو بناتهم من أبناء الشعب الأطهار .

ولما شفيت عينا حورس ، منحه رع مدينـــة بى ؛ وجعل له أخوين مقدسين فى مدينة بى ؛ وأخوين مقدسين فى مدينة نخن ؛ حتى يكون له قضاة على الدوام ، وعنـد ذلك طابت نفس حورس وعاوده فرحه القديم وعندما فرح حورس اخضرت الأرض ؛ وأخرجت طيباتها ؛ وانقشعت السحب الداكنة ؛ وطابت الحياة ..

اسم رع

رع ذو الجلال ، هو الذى خلق السموات والارض ، وخلق الآلهة والناس أجمعين ، وخلق النبات والحيوان ، وخلق النار الموقدة ؛ وخلق الروح ونفخها فى الأحياء ؛ ثم استوى على العرش وتولى بنفسه حكم العالم ؛ آلهته وأحيائه على السواء .

وطالما أبصرت ايزيس مظاهر قوته وجبروته ؛ تلك القدرة التى تطوى الأرض والسماء ، والتى ينحنى أمامها الآلهة والناس ؛ وطالما تمنت فى قرارة نفسها أن توهب تلك القدرة حتى تصبح أعظم من الآلهة ، وتسيطر على الناس أجمعين .

ولم تكن هناك طريقة واحدة للحصول على هذه القوة ، فان رع انما يحكم العالم بقوة اسمه ، ولا يعرف هذا الاسم الغامض سواه ، ومن يستطيع أن يعرف سر ذلك الاسم سواء كان بشرا أو الها ، يستطيع السيطرة على العالم وقد يستطيع السيطرة على رع نفسه ؛ وكان رع يحتفظ بسر اسمه لنفسه ؛ ولا يبوح به لأحد محافظة منه على قوته وسطوته .

وكل صباح كان رع يخرج فى موكبه الخالد ؛ من الأفق الشرقى عابرا السماء ، وفى كل مساء كان موكبه يختفى فى طيات الأفق الغربى حيث ينير ظلمات العالم السفلى ، عالم الدوات وقد ظل رع يقوم بهذه الرحلة ملايين السنين حتى دبت اليه الشيخوخة وتقدمت به السن فكان لا يستطيع أن يضم فكيه ، أو يقفل فمه ، فكان لعابه يسيل على الأرض .

وتناولت ايزيس حفنة من التراب ؛ ومزجتها بلعاب رع ؛ وصنعت من ذلك قطعة من الطين جعلتها على صورة ثعبان مجنح ؛ من تلك الثعابين المقدسة التي تتوج رءوس الآلهة ، وتزين تيجان ملوك مصر ؛ ولم تقرأ على ذلك الثعبان تعاويذها ورقاها ، لأن الثعبان كانت الحياة تجرى فيه من لعاب رع نفسه ثم أخذت الثعبان وأخفته على طريق موكب رع ؛

ذلك الطريق الذى يسلكه كل يوم فى رحلته من الأفق الشرقى الى الأفق الغربى عبر السماء ...

وفى الصباح استأنف موكب رع رحلته الخالدة ، متجها الى الأفق الغربى حيث مدخل عالم الظلام السفلى ، ليثير الظلام الدامس وعندما مر رع بالأفعى ؛ أنشبت فيه أنيابها ؛ وأفرغت فيه من السم نارا اشتعل لها جسده الذابل .

وصرخ رع فتجاوبت السموات صرخته ، ورجعها الأفق الشرقى والأفق الغربى ، وانحدرت الصرخة المقدسة الى الأرض حتى سمعها الآلهة والناس أجمعون .

وقال له الآلهة الذين يتبعون موكبه : « ماذا جرى لك ... ؟ ماذا جرى لك ... ؟ ولكن رع لم يجب بكلمة واحدة ، وأخذت أطرافه المقدسة ترتعد ألما ؛ وأسنانه تصطك ؛ ولكنه لم يفه بكلمة ، لأن السم سرى فى جسده الآلهى كما تسرى مياه النيل فى الأرض الجافة فى زمن الفيضان ...

وعندما هدأ قليلا دعا اليه من يتبع موكبه من الآلهة وقال : « تعالوا الى ... أنتم يا من خلقتكم بقدرتى ، لقد أوذيت أذى بالغا ، أحسه ولكننى لا أعلم مأتاه ولم تخلقه يداى هاتان ، ولا أعلم من أوجده .

أبدا لم أحس بمثل هذا الألم من قبل ... أبدا ... وليس هناك اصابة أبلغ من هذه أبدا ؛ من الذى يستطيع ايذائى .. ؟؟ ان أحدا لا يعرف سر اسمى ، ذلك السم الذى منحنيه أبى وأمى ؛ وأودعانى اياه بحيث لايؤثر فيه سحر ؛ ولا يعرفه مخلوق .

لقد خرجت لألقى نظرة على العالم الذى خلقته ؛ وقد مررت على الأرض حينما لدغنى شىء لا أعرفه ؛ أهى نار أم جليد انى أحترق ... اننى أرتعش ... ؛ ان أطرافى كلها ترتعد ؛ نادوا لى أطفال الآلهة الذين بيدهم الشفاء ، أولئك الذين يتقنون فنون السحر ، وتصل قوتهم الى السماء ... ؟

وعندئذ أقبل الآلهة وهم يبكون ويصرخون ويولولون ، لأن قدرتهم كانت عديمة الجدوى حيال ذلك الثعبان ؛ لأن المادة المقدسة دخلت جسده ؛ وأقبلت مع الآلهة ايزيس ؛ الشافية ؛ سيدة السحر ؛ التى فى فمها ترياق الحياة ، التى تطرد كلماتها المرض ؛ وتوقظ الموتى .

وقد تحدثت ايزيس الى رع قائلة : « ما هذا .. ؟ ما ذا جرى أيها الأب المقدس..؟هل لدغك ثعبان شرير .. ؟ هل رفعت مخلوقاتك رأسها ضدك .. ؟ أنظر .. ان سحرى سيطرد ذلك السم ؛ اننى سأطرده ببركتك ؟ .

وعند ذلك أجاب رع : « لقد مررت عبر الممر المألوف ؛ ومررت على الأرض عندما لدغنى ثعبان لم أره ؛ وأنشب أنيابه فى جسمى ؛ هل كان سمه نارا أم جليدا ؟ اننى أبرد من الجليد ؛ اننى أشد حرارة من النار ؛ ان أطرافى لترتعد ؛ والعرق يتصبب على جبينى ؛ كما يتصبب على جباه البشر تحت حرارة الشمس المشرقة ؛ فى الصيف القاسى » .

وتكلمت ايزيس مرة أخرى ؛ وكان صوتها فى هذه المرة منخفضا لطيفاً : « قل لى سر اسمك أيها الأب القوى ؛ اسمك الحقيقى ؛ اسمك السرى الغامض ؛ لأن الحياة كتبت لمن ينادى باسمه فقط » . وعندئذ أجاب رع : « أنا خالق السموات والأرض ، أنا مرسى الجبال ؛ أنا خالق البحار ؛ أنا خالق أسرار الأفقين ؛ أنا النور والظلام ؛ أنا خالق الساعات والأيام ؛ أنا فاتح الأعياد ؛ أنا مجرى الأنهار ؛ أنا خالق اللهب ؛ أنا خبير فى الصباح ورع عند الظهيرة ؛ وآتمو عند ما يحل المساء » ؛ ولكن ايزيس قابلت تلك الكلمات كلها بالصمت والهدوء ؛ ولم تتفوه بكلمة ما ؛ لأنها كانت تعلم أن رع قال لها الأسماء التى يعرفها الجميع ؛ أما اسمه الحقيقى اسمه السرى المقدس ؛ فقد كان لا يزال مطويا فى صدره .

وسرى السم فى جسده ؛ وأخذ يجرى فى عروقه كألسنة اللهب الممتدة .

وبعد فترة من الصمت ؛ تكلمت ايزيس مرة أخرى : « أريد اسمك

.. ان اسمك الحقيقى ؛ اسمك السرى لم يكن بين تلك الأسماء ؛ قل لى على اسمك حتى أطرد السم خارج جسـدك ؛ لأننى أشفى بسحرى من أعرف اسمه الحقيقى ..

وأخذ السم ينتشر فى جسده ؛ فيحس بالنـار تسرى فى أعضائه وأصبح قارب الشمس فارغاً ؛ وكذلك عرش الاله صار خواء ؛ لأن رع خبأ نفسه من أتباعه والذين خلقهم بيديه .. !!

وعندما انتقل الاسم من قلب رع الى قلب ايزيس ؛ تكلمت الربة الى رع قائلة عاهدنى يارع على أن تعطى عينيك لحورس وما عنيا رع الا الشمس والقمر ويدعوهما الناس بعينى حورس حتى اليوم .

وهكذا انتقل اسم رع من قلبه فأصبح ملكا لايزيس ؛ وعندئذ صاحت بكلمة السر فأطاع السم ؛ وشفى رع بقوة اسمه .

وايزيس العظيمة سيدة الآلهة ؛ سيدة السحر ؛ ان فى يديهـا الشفاء ؛ وفى فمها ترياق الحياة ؛ وبكلماتهـا ينمحى الألم ؛ وبقوتها تعيد الحياة الى من مات .

جبهة هليوبوليس

كان رع يحكم الوجهين ؛ وكان ثانى ملوك مصر ؛ وقد شمل السلام البلاد فى عهده ، وقد زادت المحاصيل وعمت البركة والخير كل الأقاليم حتى ان الناس يتحدثون الى اليوم عن البركة التى حلت بالبلاد فى عهد رع .

ولقد خلق رع نفسه بقدرته ؛ ثم خلق السموات والأرض ؛ ثم خلق الآلهة والبشر ؛ ثم حكم أولئك جميعا .

ولقد ظل آلاف السنين يحكم ماخلق ؛ حتى دبت الشيخوخة الى جسده الآلهى ؛ ولم يعد الناس يخافونه كما كانوا فى الماضى ؛ بل وكانوا يضحكون ويتغامزون اذ مر بهم قائلين : « أنظروا الى رع ؛ انه أصبح شيخا ؛ ان عظامه أصبحت ترن كالفضة ؛ وقد تصلب لحمه فأصبح كالذهب ، وأصبح شعره فى زرقة اللازورد » .

وأخذ رع يستشعر المهانة كلما استمع الى همسهم الخبيث ؛ أو ضحكهم المستهتر ؛ وذات يوم دعا اليه الآلهة الذين يحفون بموكبه وصاح فيهم « ائتونى بابنتى ، وقرة عينى ، ونادوا الآلهة شو ؛ وتفنوت ؛ وجب ؛ ونوت ؛ والاله العظيم نون ؛ الذى يسكن نهر المجرة وسط السماء ؛ نفذوا أوامرى سرا حتى لا يسمع الناس أو يروا شيئا مما يحدث وحتى لا يخافوا فيختبئوا .

وفى السر ذهب الرسل ؛ وانطلقوا فى هدوء يبلغون الرسالة الى الأرباب ؛ وقد أقبل الأرباب فى الخفاء ؛ لم يشعر بانتقالهم أحد ؛ حتى وصلوا الى قصر رع العظيم فى مخبئه السرى ؛ فلم يحس الناس بكل ما حدث ؛ فاستمروا فى تغامزهم وضحكهم ؛ وهم لا يعلمون بالعقاب الرادع الذى يوشك أن يحل بهم .

وحف بالعرش الأرباب والربات ؛ المقبلون من شتى الجهات ؛ وانحنوا

من خشوع أمام رع ؛ حتى مست جباههم الأرض قائلين : « مرنا نطعك أيها الاله العظيم ؟ » .

وعندئذ قال رع لنون العظيم ؛ الذى يغطى نهر المجرة وسط السماء « أيها الاله العظيم يا أكبر الآلهة سنا ؛ يامن نسل منك الجميع .. أنظر الى الناس الذين خلقتهم من عينى .. أنظر كيف يسخرون منى ؛ ويهزأون بى ؛ فماذا أصنع بهم .. ؟ قل لى ؟ انى قررت ألا أذبحهم قبل أن أستشيرك فى ذلك وأسمع رأيك » ؟

وأجاب الاله العظيم نون الذى يغطى نهر المجرة وسط السماء : « رع .. يابنى .. ياأكبر الالهة ياأقوى الملوك ؛ أسرع بموكبك الخالد ؛ وليحل غضبك على العالم ؛ أرسل اليهم ابنتك وقرة عينك سخمت ؛ حتى لاتدع منهم حيا » .

وتكلم رع ثانية فقال : « انظر .. انهم سيفرون الى الصحارى والجبال ؛ ويخبئون أنفسهم اذا شعروا بالخوف نتيجة سخريتهم وضحكهم؛ ولن يستطيع أحد أن يجدهم فى الصحارى والجبال » .

وقالت الأرباب والربات مجتمعين ، وقد أحنوا جباههم أمام رع: « أرسل عليهم ابنتك وقرة عينك .. أرسل عليهم سخمت » .

وعندئذ أقبلت ابنة رع ، التى يسمونها سخمت ، لبؤة منفيس ويسمونها هاتور ، أشرس الربات على الاطلاق ، تنقض على فريستها كالأسد .. التذبيح مسرتها المثلى ، ومتعتها فى عب الدماء .

وانطلقت سخمت استجابة لرغبة أبيها ، الى أرض الشمال وأرض الجنوب ، لتذبح الثائرين على أبيها رع ، فأحالت ثورتهم الى سخرية وأضحوكة للعالمين ، ولقد ذبحتهم جميعا فى أرض تامرى وكذلك على الجبال المستلقية شرق النهر العظيم وغربه ، وأخذت تضرب هنا وهناك ؛ تذبح كل من يعترض طريقها ، وأمامها تفر جموع الخارجين والثائرين .

وأطل رع من عليائه على الأرض ؛ فراعته تلك الأنهار من الدماء

فصاح بابنته : « كفى .. كفى يا ابنتى .. وليحل السلام ياهاتور ألم تنتهى بعد مما أمرتك به ؟ » .

فضحكت هاتور كما تضحك اللبؤة ، وهى تعب من دم الفريسة وصاحت : « بحق حياتك يارع .. اننى أنفذ قضاءك فى الناس ، وقلبى بذلك سعيد » .

وجرى النهر أحمر قانيا عدة أيام ، والربة المتوحشة تعب من دماء الناس ، وقد تخضبت أقدامها بالدماء ، وهى تسير فى أرض مصر حتى وصلت الى هنن - نى - سوت ..

وأطل رع من عليائه على الأرض مرة أخرى فامتلأ قلبه شفقة ورثاء للبشر ، الذين أبتدعتهم يداه ، رغم أنهم سخروا منه وتضاحكوا عليه ؛ ولكن أحدا لايستطيع أن يوقف الربة المتعطشة للدماء عند حدها ، حتى رع نفسه ؛ ولن تتوقف عن تذبيح الناس حتى تروى غلتها ، فالآلهة والناس لايستطيعون لها دفعا ، ولن تتوقف الا بالخديعة والدهاء .

وأصدر رع أوامره قائلا : « الى بالرسل الخفاف الذين يسرعون كالريح العاصف » فلما أن حضروا اليه قال لهم : « اذهبوا الى جزيرة فيلة ... أسرعوا ... عجلوا .. واحضروا الى الثمار التى تجلب النوم ... أسرعوا وعجلوا ، فينبغى أن تكون الثمار هنا قبل فجر الغد .. » .

وأسرع الرسل بسرعة كسرعة الريح العاصفة حتى بلغوا جزيرة فيلة ، حيث مياه النهر العاتى تتكسر على صخور الشلال فى عنف وهدير : وأحضروا الثمرة التى تجلب النوم ، ثم قدموها لرع ، وكانت الثمرة حمراء قرمزية ، وكان عصيرها فى لون دم البشر ، وحملها الرسل الى هليوبوليس مدينة رع .

وجرش نسوة هليوبوليس الشعير وصنعوا منه الجعة ، ومزجوا عصير الثمرة المنومة بالجعة ، فأصبح لون الجعة كالدم النجيع ،

بلاد الليل والظلام الدامس

وصنعوا منها سبعة آلاف مكيال ، وخمروها فى عجلة ، لأن الليل يوشك أن ينقضى ، وقد لاحت طلائع الفجر .

وأقبل رع ، وفى موكبه الأرباب والربات ،ليفحصوا الجعة المصنوعة ، وقد وجدها رع فى لون دم الانسان ،فقال : « انها جعة جيدة ، بهذا سأحمى البشر من الفناء » .

وعندما أشرق الفجر أصدر أمره : « احملوا هذه الجعة الى حيث المذبوحون من الرجال والنساء ؛ وصبوها فى الحقول قبل أن ينقشع الظلام » .

وصبوا الجعة على الحقول فغمرتها جميعا ؛ حتى بلغ مستواها ارتفاع أربع نخلات باسقات .. وكان لونها كالدم النجيع .

وفى الصباح أقبلت سخمت المتوحشة وهى على أتم استعداد لتعمل الذبح والتقتيل ، وبينما هى متقدمة أخذت تلفت هنا وهناك لعلها أن ترى فريسة تفتتح بها يومها ، ولكنها لم تر شيئا .... وأبصرت بالحقول التى تغمرها الجعة بلون الدماء ، فكشرت عن أنيابها وضحكت كما تزأر اللبؤة الشرسة ، وقد ظنت أن تلك الدماء الجارية من صنعها ، وأنها قد سفكتها جميعا ، فانتشت طربا ، ومالت على الجعة وأخذت تشرب .. ! أخذت تشرب وتشرب .. ! وكلما أمعنت فى الشرب أمعنت فى الضحك ؛ لأن النشوة لعبت برأسها ؛ وبدأ مفعول الثمرة يجلب النوم اليها ، فلم تعد تستطيع التذبيح والتقتيل .

وناداها رع اليه قائلا : « تعالى ياجميلتى » فأقبلت اليه سكرى تتعثر ، وهكذا أنقذ رع البشر من الفناء ، وحماهم من غضب الربة المتوحشة ...!!

. . .

عند ماخلق العالم ، خلق به نهران ، نهر مصر ونهر السماء ، وكان النيل ــ نهر مصر ــ عظيما ، كان ينبع من الجنوب من خلف الشلال ، ويفيض على أرض مصر ، فيجلب الخير والبركة والمحاصيل الى أرض تا ــ مرى ، وكان نهر السماء عظيما جبارا يجرى عبر السماء وخلال الدوات ، عالم الليل والظلام الدامس ، وعلى هذا النهر كان قارب رع يسير واسمه قارب ملايين السنين ، ولكن الناس يدعونه قارب مانزت اذا كان الفجر ، عندما يشرق رع فى جلال على الأفق الشرقى للسماء ، ويدعونه قارب مسيكتت اذا كان المساء، عندما ينحدر رع فى جلال الى ظلمات الدوات ، حيث يشمخ جبل مانو بقمته الى السماء الغربية ، فعلى الأفق الغربى يبدو للناظر جبل مانو ، وعلى الأفق الشرقى يبدو جبل باخو ، وكلاهما ضخم رهيب ، فأصلهما راس على الارض ، وعلى قمتيهما تستقر السماء .

وعلى أقصى قمة جبل باخو يعيش ثعبان طوله ثلاثون ذراعا ، وقد رقط جلده بالبازلت الاسود والمعادن البراقة ، وهو يحرس الجبل ، والمياه الخضراء المترامية ، ولا يستطيع أن يمر به الا رع فى قاربه الخالد .

وعندما يحل المساء ينحدر رع فى جلال الى الأفق الغربى ، ويغرب فى ظلمات الدوات عند ثغرة ابيدوس ، وكم هو جميل قارب مسكتت عند المساء ، انه مزيج من الألوان الرائعة البديعة مزيج من القرمز والارجوان ، واللازورد والذهب الخالص الجميل .

وعند ثغرة أبيدوس تقف جمهرة من الآلهة فى انتظار قارب رع، ليعدوه لرحلته خلال ظلمات الدوات ، أرض الليل والظلام الدامس ، وهناك يتعرى القارب من حلاه ، ويمر خلال الدوات عاريا من الجلال بسيطا ، وفيه يرقد جسد رع ميتا قد فارقته الحياة .

ويمسك الآلهة بالحبال ، ويجرون القارب على صفحة النهر الحزين ، ويتسع النهر رويدا رويدا ... وتحتل ربات الليل الاثنتا عشرة أماكنهن ، حيث يقدن القارب خلال الظلمات ، لأنهن قباطنة النهر ولا أحد غيرهن يعرف مجاهل الدوات حتى رع نفسه .

وأول مملكة من ممالك الدوات بلاد الليل والظلام الدامس هى نهر رع ، وكم هى حزينة تلك المملكة ، وان لم يكن ظلامها دامسا ، لان النهر فى هذه المنطقة تحيط به أفاع ست على كل من ضفتيه ، وقد التفت حول نفسها وتكومت وشرعت رءوسها ، وقد اندلعت من أفواهها ألسنة اللهيب ، وفى قمرة القارب يرقد رع ميتا لاحياة فيه ...

وفى مقدمة القارب يقف آب ـ نوث فاتح الطرق ، وصار به الساعة الاولى ، وحول القمرة يقف بعض الآلهة ، أولئك هم حماة رع وحراسه من الارواح الشريرة ، ومن هجمات أبيب عدوه اللدود فى بلاد الدوات ، بلاد الظلمات .

ويمضى قارب رع وئيدا خلال الدوات ، الى بلاد الظلام الدامس بلاد الرعب والفزع حيث يسكن الموتى ، وحيث يرقد أبيب فى انتظار مقدم رع ، وهكذا تنقضى أول ساعة من الليل .

وعند حدود كل مملكة من ممالك الدوات بوابة عالية الأسوار لايمكن أن يتسلقها انسان ، وقد رشقت فى أعلى الاسوار رءوس الحراب مدببة حادة ، أما الباب فمن الخشب ، وهو يدور على محور وتقوم على حراسته أفعى مهولة ، فلا تسمح لأحد بالدخول الا أولئك الذين تعرف أسماءهم ، وعند منحنى الممر ، ثعبانان كبيران مجنحان ، ينفثان لهيبا ممتزجا بالسم ، أحدهما من أعلى الباب والآخر من أسفله ، فيتقابل لسانان من اللهيب المسموم عبر الممر ، الذى يقف فى نهايته حارس يقظ .

وربة الساعة الاولى تفتح الطريق أمام ربة الساعة الثانية ،

وسرعان ماتتسع الابواب ، ويختفى ذلك اللهب المسموم ، ويمر قارب رع فى سلام ..

أما المملكة الثانية من ممالك الدوات ، فهى أو ـ نس ، وان كان أهل الشمال وجزر المياه الخضراء يدعونها أورانوس ، وهناك يتسع النهر ويحمل على مياهه القاتمة أربعة روامس ، ليس لها مجاديف ولا ساريات ، ولكنها طافية على النهر ، يحملها التيار كذا يشاء ، وهى روامس غريبة حقا لانها تحمل أطيافا كثيرة ، لها أشكال الرجال ، وفى هذه المملكة ينتشر سلطان رع ، فهو الملك والسيد ، ويحيا سكانها فى سلام ، لان أحدا لايستطيع أن يخترق تلك البوابات التى يغمرها اللهيب المسموم ، ويقف عليها حراس أشداء .

نعم سعداء ... أولئك الذين يعيشون فى مملكة او ـ نس ، لان أرواح القمح تعيش بها ، ففيها نبرا ، وتيبو ـ ين ، الآلهة التى تصنع القمح والشعير وتبارك المحصول فتزيد الخيرات والثمرات .

ويمضى قارب رع وئيدا خلال الدوات ، الى بلاد الظلام الدامس ، بلاد الرعب والفزع ، حيث يسكن الموتى ، وحيث يرقد أبيب فى انتظار مقدم رع ، هكذا تنقضى الساعة الثانية من الليل ، وربة الساعة الثانية تفتح الطريق أمام ربة الساعة الثالثة ، وسرعان ماتتسع الابواب ، ويمر قارب رع فى سلام ..

أما المملكة الثالثة من ممالك الدوات فهى نهر الاله الواحد ، وهنا « أمنتت الجميلة ، مملكة أوزيريس ، وعلى ضفتى النهرتماثيل للآلهة ، وهى تحيط بأوزيريس ، وقد اكتسى أوزيريس مهابة وجلالا ، يليقان بملك عادل ، وقد توج رأسه بتاج الجنوب الابيض ، وتاج الشمال الاحمر .

كم هو عظيم أوزيريس اله الموتى ؛ لأن كل من يموت يقف أمامه للحساب ، حيث توزن قلوب الموتى فى الميزان ، فتوضع فى كفة ، وفى الكفة الأخرى ريشة الحق ، أما عرشه فقد استوى على

ماء غـدير عميق رقراق ، وقد نبتت على سطح الغدير زهـرة لوتس وحيدة لونها كالسماء فى البكور ، وعلى زهرة اللوتس يقف أطفال حورس الاربعة ، الذين يعاونون أوزيريس فى الحساب ، ويحفظـون أجسـاد الموتى ، ولهم الشرق والغرب والشـمال والجنوب تحميهم الربات الأربع العظيمات ، وهم يقفون على زهرة اللوتس ووجوههم الى أوزيريس ، وأولهم له وجه انسـان ، والثـانى له وجه قـرد ، والثالث له وجه ابن آوى ، والرابع له وجه طائر جارح وهـذه هى الساعة التى يخشاها الاشرار ، لانهم يؤخذون بما قدمت أيديهـم ، ولا منقذ لهم ولا معين .

وقلب الشرير ثقيل بما يحمل من وزر ، ولذلك فهو يغطس فى الماء ويظل يهوى الى القاع حتى يصـل الى فكى أممت آكل القـلوب ، وعندئذ يساق الشرير الى ظلمات الدوات ليعيش مع أبيب الكريه ، وليقذف به بعد ذلك فى حفرة من النار .

ولكن هناك أيضا المؤمنون المحسنون ، الذين لم يلحقوا أذى بانسان ، وأعانوا الأيامى ، ورعوا اليتامى والمساكين ، وقدموا الطعام للجائعين ، وكسوا العراة ، أولئك الذين لم يقترفوا اثما ولم يسيئوا الى انسان ، عندما يقبل أولئك على أوزيريس . ويضـع قلوبهم فى كفة ميزانه ، تجد قلوبهم أخف من ريشة الحق ، فتهبط كفة الريشة ، وتشيل كفة القلب المؤمن ، وعندئذ يتناول توت المزدوج العظمة ذلك القلب ، ويودعه صدر صاحبه ، ثم يتناول حورس يده ويقوده الى ظل عرش أوزيريس حيث يعيش فى مملكته الى أبد الآبدين ، وعندئذ فقط يستطيع أن يرى أوزيريس ، لان ارواح الموتى لاتستطيع رؤية الآلهة طالما هى تسكن الجسد ، وتتعرض للانفعالات ، وعندما تتحرر من هـذه القيود ، ثم تنطلق فى تلك العوالم الطاهرة ، عوالم الدار الآخرة ، وعنـدئذ يصـبح ذلك الاله ملكهم وسيدهم يعتمـدون عليه ويجتلون طلعته ، ويستمتعون بذلك الجمال الذى لايستطيع تصوره انسان .

ويمضى قارب رع وئيدا خلال الدوات الى بلاد الظلام الدامس بلاد الرعب والفزع ، حيث يرقد أبيب الكريه فى انتظار مقـدم رع ، وحيث حفر النار تعد للأشرار ، وهكـذا تنقضى السـاعة الثالثة من الليل ، وتفتح ربة الساعة الثالثة الطريق أمام ربة الساعة الرابعـة ، فتتسع الابواب ، ويمر قارب رع فى سلام .

أما المملكة الرابعة من ممالك الدوات فهى « رى ـ ستاو » أو فوهة المقبرة ، والمملكة يخيم عليها الخراب ، فهى صحراء لا نهـاية لها ، ورمال جائعة براقة ، لانبات فيها ولا حياة عليها سـوى بعض الثعابين الضخمة ، تتلوى رائحة غادية ، تفح فحيحا مخيفا ، وتنشر أجنحتها ، وتندفع كأنها فى سباق رهيب ، ولكن غضبها ليس موجها الى رع ، فهو يمر بينها آمنا سالما ، والنهر فى هذه البقعة تائه ضـال بين الصخور والرمال ، ومجراه عميق ضيق يحده حائطان من الصخر الشديد الانحدار ، الذى تصفعه الرياح فتئن لصلابته ، ولاوزيريس الكلمة على هذه الصحراء فمن يمر بها آمن سالم ، لاخوف عليـه ، وفى هذا المجرى الضيق لايستطيع قارب رع أن يواصل الرحيـل ، ولذلك فهو يتحول الى أفعى هائلة قوية ، عند مقدمتـه رأس أفعى شرسة متيقظة ، وعند المؤخرة رأس أفعى ذات أنيـاب مميتة السم ، وتنسـاب تلك الافعى على الرمال كما ينساب القارب على صـفحة النهـر .

ويمضى قارب رع وئيدا خلال الدوات الى بلاد الظلام الدامس بلاد الرعب والفزع ، الى حيث يربض أبيب فى انتظار مقـدم رع ، وهكذا تنقضى الساعة الرابعة من الليل ، وتفتح ربة الساعة المنقضية الطريق أمام ربة الساعة الخامسة ، فتتسع الابواب ويمـر قارب رع فى سلام .

أما المملكة الخامسـة من ممالك الدوات فهى المختفية ، حيث يسكن سوكار الاله الصقر رب المدفونين ؟ وهو يقيم فى جحر عميـق فى باطن الارض ، ويقوم فوق الجحر تل من الرمال ويحرس مسكنه

أبو الهول عن يمين وعن شمال ، لكل منهما جسم أسد ووجه رجل ومخالبهما بارزة كالحيوانات المفترسة حين تتحفز للهجوم ، وفيما بينهما تربض أفعى مثلثة الرءوس ، وبين جناحيها يقف سوكار ، وله جسم انسان ورأس صقر ، وهو شرس وقوى كالصقر ، وعقابه شديد على أولئك الذين يعصونه ، وقرب مسكنه بحيرة يغلى ماؤها كأن تحتها موقدا ، وفى البحيرة الملتهبة يلقى بالعصاة ، الذين يصرخون مستنجدين برع عندما يمر بهم القارب ، ولكن رع يرقد فى القارب ميتا فى انتظار خيبيرا ، ولن يجيب على صراخهم أحد ، طالما القارب يواصل المسير .

وعلى الحافة الاخرى من الاخدود يقوم صرح عال ممهد ، هو دار الليل والظلام ، وعلى كل جانب من جانبيه طائر ، ويتلوى حواليه ثعبان مزدوج الرأس ، وهو رافع الرأسين يفح ويهدر . وهو متحفز للهجوم على من يحاول دخول البناء ، وكم هو حارس أمين ، لأن خيبيرا روح العالم العظيمة ، تسكن دار الليل والظلام . خيبيرا الهة البعث ، تظل فى انتظار رع على صورة جعران ، ويرفرف على القارب عندما يصل ، ويظل طائرا فوقه حتى يحين موعد اعادة الحياة الى الاله الميت .

ومن خلال الظلام الدامس ، ينحدر على المجرى الضيق شعاع من النور " وتلك هى نجمة الصباح تنتظر عند البوابة لتقود القارب الى الأمام " لأن ظلام الليل يعنى اقتراب حلول اليوم الجديد .

ويمضى قارب رع وئيدا خلال الدوات ، الى بلاد الظلام الدامس ، بلاد الرعب والفزع الى حيث يرقد أبيب الكريه فى انتظار مقدم رع .

وهكذا تنقضى الساعة الخامسة من الليل ، وتفتح ربة الساعة المنصرمة الطريق أمام الساعة الجديدة فتتسع الابواب ويمر قارب رع فى سلام .

أما المملكة السادسة من ممالك الدوات ، فهى « نبع المياه » ويحكمها أوزيريس الاله العظيم ، وحاكم مدينة دادو ، الاله الحى ، خالق الناس والماشية ، اله الخضرة الذى ينحنى أمامه الناس جميعا فى اجلال وتقديس .

ويتخلص النهر من الرمال مرة ثانية ، ويعاود القارب السير على النهر مرة أخرى ، ويشيع السرور بين ركابه ، لان ساعات الليل أوشكت أن تنقضى ، وعلى ضفتى النهر تماثيل للآلهة ، غامضة عجيبة ، وهناك سبعة صولجانات وأسد قوى ، يزأر فى الظلام ، ويكاد لايرى الا على الضوء الضئيل الذى يشعه زورق رع ، وهناك أيضا ثلاثة كنوز يحرس كلا منها ثعبان ينبعث من فمه اللهيب ، وتلك الكنوز تحوى أشياء غريبة حقا ، ففى أحدها رأس انسان وفى الثانية جناح طائر ، وفى الثالثة رجل أسد ، وهناك أيضا تعيش الافعى ذات الرءوس الخمسة ، وبين طياتها يرقد خيبيرا ، اله البعث وعلى رأسه يضع الجعران ، وعند قدميه رمز اللحم ، وهكذا يبعث الحياة فى الموتى ، وهكذا سيرد الحياة الى رع ، فهذه أبعد حدود الدوات ، وخلف البوابة يمتد الطريق الى شروق الشمس .

ويمضى قارب رع وئيدا خلال الدوات الى بلاد الظلام الدامس؛ بلاد الرعب والفزع حيث يرقد أبيب الكريه ، فى انتظار مقدم رع ؛ وهكذا تنقضى الساعة السادسة من الليل ، وتفتح ربتها الطريق أمام الساعة السابعة ، وتتسع الابواب ويمر قارب رع فى سلام .

أما المملكة السابعة من ممالك الدوات فهى الكهف السرى : وهى مليئة بالاخطار والشرور ، لأن أبيب الكريه يعيش فى هذه المملكة وهو على شكل أفعى هائلة فاغرة فاها ، تبتلع كل ما يأتى به النهر من ماء ، فقد يتحطم قارب رع ، ثم يفنى رع بعد ذلك ، وعندئذ تسيطر على العالم قوى الظلام والشر ، وتنتصر على الآلهة .

ولكن ايزيس تقف فى مقدمة القارب ، ايزيس التى لا يستطيع

أحد أن يقاوم سحرها ، ايزيس أعظم الربات على الاطلاق ، ويدين لها العالم بالحب والولاء ، تقف مادة ذراعيها مرتلة كلمات القـوة ، فيعبر غناؤها المقدس ذلك النهر القاتم ، ويلتف الثعبان «مهن» حول جسد رع ، لان ساعة الخطر قد حلت ..

وعلى لسان رملى وسط المجرى يرقد أبيب ، وطول هـذا اللسان أربعمائة وخمسون ذراعا ولفات أبيب تغطيه حتى لايظهر منه شىء الا النهر يجرى من حوله ، ويهدر أبيب ويزمجر ، فتردد أركان الدوات زمجرته الشبيهة بالرعد ، ولكن ايزيس لاتهتز لكل ذلك ولا ينقطع ترتيلها ، ولا تتوقف حركات يديها السحرية وكلما استمرت فى ترتيلها وتلاوة تعاويذها .. رقد أبيب على الرمال لايستطيع حراكا ، وعندئذ تقفز سلك ، وهر ــ دسوف من قارب رع ويوثقانه بالحبال ، ثم يطعنانه بالمدى محاولين القضاء عليه . ولكن أبيب خالد لايموت، وفى كل ليلة يقبع فى انتظار قارب رع ليفتك به ، ويمسك به سلك ، وهر ــ دسـوف حتى يمر القارب ويعبر الضـفاف الرملية ، وهو يقاوم ويجتهد أن يحل وثاقه ، ولكن الحبال قوية ، والمـدى حادة نفاذة ، وتذهب جهوده أدراج الرياح .

ويمضى القارب قدما الى مدافن الآلهة ، التى تقع بجوار النهر، تلالا عالية من الرمال ؟ وعلى كل تل بناء ؟ وعند نهاية كل تل رأس رجل ترقب مرور رع .

ويمضى قارب رع وئيـدا هادئا خلال الدوات ؟ سـائرا خلال الظلام ، الى الشروق والنهار الجديد ، وهكذا تنقضى الساعةالسابعة من الليل ، وتفتح ربتها الطريق أمام ربة الساعة الثامنة ، ويمر قارب رع فى سلام .

أما المملكة الثامنـة من ممالك الدوات ، فهى مثوى الآلهـة ، حيث يقيم الموتى من الآلهة ، فهم يرقدون هناك فى مثواهم الاخير ، محنطين وملفوفين فى لفات الكتان ، كما يحنط النـاس ويلفـون ،

وعندما يمر بهم رع يحيونه فى اجلال ، ولكن أين هو من سـماع صوتهم ؟.. انهم عنه بعيدون ، ولا يسمع لهم الا هـديرا وغمغمة ، كخوار الثيران المتوحشـة ، أو صراخ الطيـور الجارحة ؟ أو عويل النائحات ، أو طنين النحل فى خليته ، وأمام القارب يسير تسـعة من الآلهة ، أشكالهم غريبـة ، غامضـة عجيبة ، لايشـبهها شىء على الارض ، ويتقـدم هؤلاء أرواح تاتانن الأربعة ، على شكل كباش كبيرة متوحشة ، قرونها متسعة مدببة ، وقد توج أولها بريشة طويلة، وتوج الثانى بتاج الشمال الأحمر ، والثالث بتاج الجنوب الابيض ، أما الرابع فقد توج بقرص الشمس ، وكم هو قديم فى ممفيس تاتانن، حيث يقع مثوى بتاح جنوب السور .

ويمضى قارب رع وئيـدا هادئا ويسير خـلال الظلمات ، الى الشروق والنهـار الجديد ، وهكذا تنقضى الساعة الثامنـة فتفتح ربتها الطـريق أمام الساعة التاسـعة ، فتتسع الابواب ويمر قارب رع فى سلام ...

أما المملكة التاسعة من ممالك الدوات فهى « عالم صـور » ، وهنا يجرى النهر عنيفا قـويا ، ويندفع القـارب بسرعة مع التيار ، تحرسه اثنا عشر من آلهة النجوم ، وفى أيديها مجاديف قصار ، وهى على أتم استعداد لمساعدة سيدها عند الحاجة .

ولا يغمر الظلام هذه المملكة ، لان اثنى عشر ثعبانا كبيرا تلتف على نفسها على ضفتى النهر ، وينبعث من أفواهها ألسنة من اللهيب تنير صفحة السماء وأنحاء الدوات ، ويطفو على النهر روامس ثلاثة غريبة الشكل ، فهى لاتشبه القوارب المألوفة ، وحمولتها أغرب من شكلها ، فهى محملة بأطياف تشبه البقر والكبـاش ، ولهـا أرواح الناس ، وهؤلاء هم الذين تقدم لأرواحهم القرابين فى الدار الأولى، وتنـدفع ربات النجـوم فى غنـاء لطيف ، وتردد الأرواح غناءها ، ويستمر الجميع فى الغناء حتى يعبروا ذلك الممر الطويل ، فى تمجيد رع ، رب القارب ، وخالق السموات والارض .

ويستمر قارب رع سائرا فى هدوء خلال الدوات ، راحلا الى حيث الشروق ، والنهار الواضح الجديد ، وهكذا تنقضى الساعة التاسعة من الليل ؛ وتفتح ربتها الطريق أمام الساعة التالية ؛ فيمر قارب رع فى سلام ..

أما المملكة العاشرة من ممالك الدوات ، فهى نبع المياه والشطوط الرفيعة ، وحاكمها هو رع وسكان المملكة يهرعون للقاء ملكهم ، عندما يمر على النهر الدفاق ، وهنا نجد المجرى عميقا منحدرا والقارب يندفع بعنف مع التيار ، والحراس مسلحين بأسلحة براقة ، وعلى استعداد لحماية ملكهم ، وعلى وجوههم نور كنور الشمس ، وعلى الشاطىء ربات أربع يبعثن بأشعة من نور ، تبدد الظلام أمام موكب رع على النهر الخالد .

وأمام قارب رع تسير نجمة الصبح ، على شكل ثعبان مزدوج الرأس، يسعى على قدميه ، وعلى رأسه تاجا الشمال والجنوب ، وبين طياته يقف صقر السماء العظيم ، وهو سيد السماء ، لان نجوم السماء تتبعه ، ولكن الناس يسمونه هسبر ، ولو سيفر أيضا ، وفى رمس على النهر ثعبان كبير ، هو روح الارض ، وهو يراقب أعداء رع فى جنبات الدوات .

وهذه أكبر ممالك الدوات لأن خيبيرا يمزج نفسه برع ، فى مملكة الغموض والعجائب هذه ، ويخلق رع من جديد ، ويظل جسد رع مسجى فى القارب ، بينما روحه قد اتحدت بروح خيبيرا .

ويمضى قارب رع قدما خلال الظلمات ، الى الشروق والنهار الواضح الجديد ، وهكذا تنقضى الساعة العاشرة من ساعات الليل فتفتح ربتها الطريق أمام الساعة التالية ، فيمر قارب رع فى سلام .

أما المملكة الحادية عشرة من ممالك الدوات فهى « فوهة الكهف » وحاكمها رع ، وهنا يجرى النهر هادئا منخفضا ، وهنا حيث

التيار منعدم ، يجر الآلهة القارب ، وهم لايجرونه بالحبال ، ولكن بجسد الثعبان مهن ، حامى رع ، وفى مقدمة القارب نجمة نارية ، ولكن ضوءها ليس فى حمرة الضوء الذى يغمر هذه المملكة ، فهى حمرة مخيفة مرعبة ، تبعث الرهبة فى القلوب ، والأشرار يخشون هذه المملكة ، لان عقابهم ينتظرهم هناك ، فهنا وهناك حفر من النار، ويحرس الحفر ربات تنفسهن نيران ، ويمسكن بأيديهن سيوفا من النيران ، وهن يقطعن الأشرار بأسلحتهن ، ثم يرمين بأشلائهم فى النار حتى تحترق ، وهنا يقف حورس ليرى أشلاءهم ، لانهم أعداء أوزيريس ورع ، انهم مقترفو الاثم وناشرو الفساد على الارض ، عصاة الآلهة، ولا منقذ لهم من ذلك العذاب ، ولا فرار من النار ، وبئس القرار ، ويعبق جو الدوات برائحة هذه الأجساد المحترقة ودخانها .

وعلى الضفة البعيدة من النهر النجوم .. فهناك «شدو» .. على هيئة ثعبان أحمر قرمزى اللون .. والنجوم التى يتكون منها جسده عشرة عدا .. وهنالك كائن غريب أيضا .. يبدو كثعبان مجنح .. ولكن له ساقين .. وبين جناحيه طيف انسان .. ويسميه الناس آتمو .. ساكن هليوبوليس .. وهو قديم .. بل أقدم من رع نفسه .. وهو الذى يبعث بنسيم الشمال الرطب الى أرض مصر .. وحوله تبدو عينا حورس .. لقد بدأت أنفاس الصباح الرطيبة تنبعث .. وفى طياتها يقترب النهار الوليد .

ويمضى قارب رع خلال الظلمات .. الى الشروق والنهار الواضح الجديد .. وهكذا تنقضى الساعة الحادية عشرة .. وتفتح ربتها الطريق أمام الساعة التالية .. ويمضى قارب رع فى سلام .

أما المملكة الثانية عشرة من ممالك الدوات فهى « ولى الظلام وأقبل النور » وعلى مقدمة القارب ذلك الجعران الكبير « خيبيرا » متأهب ليرد الحياة الى رع قبل أن يصل الى حدود الدوات .. وليست هذه المملكة كسابقتها .. لأنها منطوية فى جوف ثعبان كبير

ضخم .. اسمه حياة الآلهة .. وفى هذا الفراغ الواسع يسافر قارب
ملايين السنين .

ويجر القارب اثنا عشر من أتباع رع بعد أن يربطوه بالحبال ، وفى جوف الأفعى يتحول رع الى خيبيرا ويحيا مرة ثانية ، لأن الرحلة خلال الدوات أوشكت على الانتهاء ، وعند فم الأفعى تقف اثنتا عشرة ربة يتسلمن الحبال ، ويجررن القارب الى الافق الشرقى للسماء ، ويخرج جسد رع الميت من القارب كما يقذف غشاء الحبة بعد نمو النبات ، لأن روح رع وحياته فى جعران خيبيرا ، وقد تم البعث ويخرج قارب رع من تيه الدوات بين الغناء والبهجة والفرح.

كم هو فاخر قارب مانزت وهو يجد نحو الشروق ، وتنفتح الأبواب ، أبواب السموات على مصاريعها ويطلع النهار ، ومن بين الأعمدة المرمرية يخرج قارب رع . ويغمر النور جبل باخو . ويستقبل الثعبان الضخم حارس المياه الخضراء رع بابتهاج على الأفق الشرقى والأشعة تنسكب على مخالبه .

كم هو رائع قارب مانزت المولود على النهر ، وعندما يلتمع فى وضح النهار ، وفى الزبد عند مقدمة القارب تمرح سمكة « آبتو » وترى سمكة «آنت» تسبح فى المياه الخضراء ، ومن الارض تتصاعد الصلوات والدعوات لأن جميع المخلوقات تمجد رع عند الشروق .

وتباركت يارع عند ما تشرق ... فقد ولى الليل والظلام ، وعند فجر اليوم تشرق وتمتلىء السموات بنورك .. أنت كبير الآلهة ، لك المجد والنصر ... ان الآلهة يترامون عند قدميك كالكلاب ويتسابقون لتحيتك عند الفجر ....

تباركت يارع عند ماتشرق .. فعند شروقك يشيع السرور فى الناس ، لأنك تحكم العالم ، يا من تمجدك النجوم فى السماء ، ويقدسك آلهة الأرض .. يارب السموات ..

تباركت يارع عندما تشرق ... فلايستطيع أحد أن يصف

مجدك ... يارب الحكمة والحق ، ان أرواح الشرق تنتظر ، وأرواح الغرب عبيدك وخدامك ، ويقدسك الشمال والجنوب ...

لك التقديس ياسيدنا ... يامن خلقتنا ... فانك تشرق فى أفق السماء ، فتسبب للناس الحياة ...

لك المجد يارع عندما تشرق .....

لك المجد عندما تشرق فى جمال يارع ...

مراجعة : الشناوى



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون ٤٠٥٨٨ ـ ٤٠٨١٤ ـ ٤١٠١٢ ـ ٤٥٣٤٦

1/...
1...
1...
1...



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون ٤٠٥٨٨ ـ ٤٠٨١٤ ـ ٤١٠١٢ ـ ٤٥٣٤٦

العدد ١٩

الثمن ١٠ قروش